قصص من التاريخ

٣

الإيمان والزنزانة المتجولة

محمد حسن الحمصي

دار الرشيد

الزنزانة المتجوّلة

محمد حسن الحمصي

الطبعة الثالثة
١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

« رب أَوزعني أَن أَشكر نعمتك التي أَنعمتَ عليّ »

قرآن كريم

« من لم يشكر الناس لم يشكر الله »

حديث شريف

الإهداء

إلى حبيس « الزانة المتجولة » الذي عانى من ويلاتهـا ، فكان أثبت من الجبال الشم الرواسي ...

إلى من استطاع ان يتغلب على النفس الأمارة بالسوء ، ويدخلها سجن الإصلاح ، من قبل أن يعرف الناس السجون الإصلاحية ...

إلى من أنار لنا الضوء الأخضر في الحديث عن مشكلته ، فقدم لنا حديثاً رائعاً ، عـن المدرسة التهذيبية « الزنزانـة المتجولة » التي دخلها خلال خمسين يوماً . . . فأنار بذلك الطريق أمام الشباب، وأعطاهم أنموذجاً حياً للمسلم الحقيقي ، المسلم الأوّاب التواب . . .

إلى الصحابي الجليل « كعب بن مالك » ... أهدي كتابي هذا راجياً من روحه الطاهرة أن تصفح عن كل تقصير في العرض والتحليل .

« المؤلف »

مقدمـة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم وافضل الصـلاة واتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين .

اما بعـد . إنني إذ اضع بين يدي القراء الكرام الطبعـة الثانية من كتاب (الإيمان والزنزانة المتجـولة) لاحمـد المولى سبحانه الذي تفضل فاعانني على كتابة هذه السلسلة (قصص من التاريخ) التي كان رواجها وإقبال القراء عليها دليلا على انها تملأ فراغاً في المكتبة العربية ، وخصوصاً في مكتبة الشباب .

ولئن احس القارىء بالانسجام مع احداث هذه القصـة فإن الفضل في ذلـك إنما مرده الى الصحابي الجليل (كعب بن مالك) الذي قدم لنـا المفتاح على طبق من الشرح والتحليـل للموقف العظيم الذي الم به بعد التخلف عن رسول الله .

ولذلـك فـإنه لايسعني مع الطبعـة الثانيـة من هـذا الكتاب إلا ان اتقدم بجزيل الشكر الى روح هذا البطل الصامد الذي لم تفتَّ في عضد إيمانه اقسى العقوبات ولم تؤثر في إيمانه الراسخ اعتى المصاعب ... ولايسعني إلا ان اتقـدم بخـالص

التقدير الى روح التائب التوبة النصوح، ذلك الحادي في قافلة الإيمــان الصامد ((كعب بن مالك)) .

راجياً من المولى سبحانه ان ينفعنــا به ويسدد خطانــا ويوفقنا الى ما فيه الخير إنه نعم المولى ونعم النصير .

دمشق ٢٧ ربيع الأول ١٣٩٧ هـ

الموافق ١٧/٣/١٩٧٧ م

محمد حسن الحمصي

المقدمة

لم يُكتب لقصتي « الزنزانة المتجولة » الانتشار في الأسواق .. ذلك لأنني خلال فترة دفعها إلى المطبعة ، تأثرت برأي أحد أصدقائي من العلماء ، أطلعته على مجملها ، فنصحني بعدم نشرها ؛ لأنها في رأيه لاتخلو من تخيل لبعض المواقف والأقوال ، تنسب إلى واحد من صحابة رسول الله ﷺ الذين يتمتعون بمكانة خاصة من الاحترام في نفوس المسلمين ، بالاضافه إلى أن أقوالهم وأفعالهم تعتبر حجة — من وجهة النظر الفقهية — فيما لانص عليه .

وقد كان لرأي ذلك الرجل الفاضل وقع حسن في نفسي ، الأمر الذي حدا بي إلى أن أحدّ من انتشار هذه القصة ، وأجعلها وقفاً على بعض الأصدقاء .

وفي إحدى الأمسيات ، وجدتني أمام تمثيلية تعرض في التلفزيون ... فإذا بي أمام عرض لقصة « كعب بن مالك »

ذلك الصحابي الجليل الذي كان محور البحث في قصتي المشار إليها آنفاً ... ولم تتح لي الظروف أن أرى منهـــا غير مشهد مجتزأ ، لايمكنه أن يخولني فرصة الحكم عليها بكاملها ... غير أنني ذهلت عندما رأيت الصحابي الجليل « كعب بن مالك » في موقف لاأرضاه لواحد من عامة المسلمين ... يصر على التخـاذل عن نصرة رسول الله ، ويغرق في بحر الحب متهالكاً أمام جمال زوجته التي افتتن بجمالها ودلالها ، تلك الزوجة التي مافتئت تذكره برسول الله وصحابته ، وتطلب إليه اللحاق بهم ، وهو يرفض ذلك بإصرار ، ولايريد حديثـــاً غير الحب والعواطف ... وكأنما هو — وما أسماه عن ذلك — قد تنكر لرسول الله ﷺ ولم يبق في نفسه ذرة حب لله ورسوله !!

وهالني هذا المشهد الذي رأيته — ولربما كانت بقية المشاهد التي لم أرهـــا أرفع مستوى وأدق تصويراً — واستفظعت ألا يكون التحليل النفسي لكعب بن مالك ، متجاوباً مع كونه واحداً من الصحابة الكرام الذين باعوا أنفسهم لله ، ومتساوقاً مع ما روته كتب التاريخ والسيرة ، من أنه همّ بأن يسير مع رسول الله ﷺ ، لكن التسويف والمماطلة ، ورغبته في أن يقطف ثمار بستانه قبل أن يرحل للجهاد ، هي الأمور التي أودت به إلى

التخلف عن رسول الله [1] .

ولئن جـــاز للانسان أن يتخيل أن حب الأهل والأولاد سبب في تخلف من يتخلف عن القتال ، فإن هذا الأمر لايجوز أن يُجعل السبب الرئيسي الذي يصرف صحابياً جليلًا – بايـع رسول الله ﷺ على الموت – عن الجهاد انصرافاً كاملًا ، ويصمم على التخلف تصميماً أكيداً ، لايبالي بكل تذكير ، ولايهتم لأي دفع من قبل زوجته في أن يلحق برسول الله ﷺ .

وأفقت من ذهولي على دافع باطني يدفعني إلى نشر قصتي تلك ... ليعرف الناس الحقيقة المستخلصة من التاريخ وكتب السيرة ، بما يتلاءم مع نفسية صحابي جليل ، رفض أن يكذب على رسول الله ﷺ ويلتمس لنفسه العذر ، كما فعـــل غيره من المنافقين .

ومضت الأيام ... ولم أفعل شيئاً .

وشاءت الأقدار أن أقع مرة أخرى على المشهد ذاته ، من التمثيلية المشار إليها آنفاً ، يعرض من التلفزيون ... فانتابني

---

(١) راجع «تهذيب سيرة ابن هشام» الجزء ٢ صفحة ٩٩ و «السيرة الحلبية» جزء ٣ صفحة ١٦٥ . هذا ويروي ابن جرير الطبري في تاريخه الصفحة ١٠٣ من الجزء الثالث أن الثلاثة الذين خلفوا أبطأت بهم النية عن المسير مع رسول الله ، من غير شك ولاارتياب .

تأثر عميق ، صممت على أثره أن أعيد دفع قصتي إلى المطبعة ؛ ليصار إلى نشرها بما يتلاءم مع ضرورة تعرف الناس إلى هذا الصحابي الجليل .

فعدت إلى « الزنزانة المتجولة » أشذبها وأهذبها ... متوخياً في ذلك كله الأمانة التاريخية ، والصدق في التحليل النفسي .. ورأيت أن أسميها (الإيمان والزنزانة المتجولة) انطلاقاً من واقع الصراع بين إيمان « كعب » وسجنه الرهيب .

وقد جعلت النقاط الهامة مما نصت عليه كتب التاريخ والسيرة بين هلالين صغيرين ليُعرف أن ذلك هو ماجرى وماقيل على وجه الدقة ... أما ما تركته دون إشارة تنصيص ، فإنه إما أن يكون مما ليس له أهمية كبرى ، أو من الرواية التي لم أتوخ فيها وجه الدقة في التعبير .. وأما التحليل النفسي ، والحوار المعبر ، الذي أضفته بين طيات القصة ، على لسان بعض الشخصيات ، فإنني بذلت جهدي في أن يكون منسجماً مع الواقع ، ومعبراً عما يجول في أنفسهم ...

فإن أصبت فذلك ماكنت أبغي .. وإن أخطأت فإنني ماكنت أقصد ذلك ، ولاشفيع لي إلا حسن المقصد ، والرغبة

الملحة في أن أمحـــو من أذهان الكثيرين ، تلك الصورة غير المستحسنة ، عن تخلف « كعب بن مالك » رضي الله تعـالى عنه وأرضاه . .

والله من وراء القصد ...

ومنه جل وعلا نطلب التوفيق ...

دمشق في ٢٥ شوال ١٣٩٢

الموافق لـ ١ / ١٢ / ١٩٧٢

« المؤلف »

تمهيد

أشار « لودندروف » في كتابه (الأمة في الحرب) إلى أن الحرب الحديثة ليست اليوم حرب جيوش وقوى عسكرية فقط ، وإنما هي (حرب إجماعية) تقوم على حرب الأمم ضد الأمم ... واستنتج من ذلك وجوب أن تضع الأمة كل قواها العقلية والأدبية والمادية في خدمة الحرب ... كما بين أن الحرب وسيلة لا غاية ؛ لذلك وجب أن تُـعَدّ الأمة كلها للحرب ، وأن تكون دائماً على قدم الاستعداد ...

لقد نادى « لودندروف » بآرائه هـــذه في (الحرب الإجماعية) فهلل لها العسكريون وكبروا ، ورأوا أنهـا آراء جديدة ، جديرة بالتبني فكرياً وعملياً .

وراحت الدول العظمى تطبق فكرة (الحرب الإجماعية) وقد خيل إلى المفكرين ودعاة هذا النوع من الحرب ، أن ألمانيا

وإيطاليا وروسيا هي أول من طبقها خلال الحرب العالمية الثانية.. والحقيقة التي لا مراء فيها أن (الحرب الإجماعية) ليست وليدة القرن العشرين ، بل إن التاريخ يروي لنا أنها طبقت قبل أربعة عشر قرناً ، على يد جيوش التحرير العربية الإسلامية ، عندما خرجت من جزيرتها تحت لواء الإسلام ، تحشد كل ما لدى الأمة من طاقات فكرية ومادية ومعنوية وبشرية ، لتسير بها جميعاً إلى « تبوك » ؛ فتطهر جزيرة العرب من الاستعمار الروماني ومن التخلف الفكري ...

ولئن اقتصر فضل أمتنا على أنها كانت أول من أخرجت هذه الفكرة الفذة من فن الحرب إلى عالم الوجود ، لكفاها ذلك فخراً ... غير أننا نجد أن هذا الفضل العظيم قد تجاوز الحدود ، وسما فوق مايُتوقَّع له ...

فلقد نجحت العقيدة الإسلامية في إبداع فكرة (الحرب الإجماعية) فحققت بذلك بادرة حربية جديدة ؛ كما نجحت في إخراجها إلى حيز الواقع والتطبيق العملي ... ولم تكتف بذلك ، بل أخرجتها مصقولة حواشيها بأفكار الخير والعمل من أجل رفع نير الجهل والظلم ، ليس فقط عن الأمة العربية ، بل عن الأسرة الإنسانية جميعها ... في حين أن النجاح لم يحالف الأمم

الأخرى ، في القرن العشرين ، في تطبيق هذه الفكرة على عالم الواقع ، عندما جعلت منها حرباً عدوانية ، غرضها السيطرة والاستعمار والاستغلال .

لقد نجحت الأمة العربية الإسلامية ، في حشد الإمكانات المادية ، من وسائل نقل وسلاح وعتاد حربي ؛ والإمكانات المالية التي قدمها أغنياؤها ، طيبة بها نفوسهم ، والإمكانات البشرية ، سارع فيها المسلمون جميعهم ، إلا ثلاثة منهم ، الأمر الذي لم يتيسر لأمة من الأمم ! !

ولئن كان الميزان الحساس في نجاح أية أمة من الأمم في تطبيق الحرب الإجماعية ، يتجلى في ضآلة عدد الذين يتخلفون عن الانخراط في غمار هذه الحروب ، **فان الأمة العربية – بفضل التنشئة الاسلامية الحية – قد بلغ نجاحها في هـذا المجال شأواً بعيداً ، إذ لم يتجاوز عدد المتخلفين عن معركة التحرير ثلاثة أشخاص !! نعم ثلاثة أشخاص فقط !!** الأمر الذي خول سيدنا محمداً ﷺ فرصة الاستغناء عن الاستعانة بالمنافقين ، الذين يدّعون الإسلام ولا يعملون به ... أولئك الذين اجتمعوا تحت راية « عبد الله بن أبيّ بن سلول » ، **في حين أن الجميع يعرفون ، أن عدد المتخلفين لدى الأمم**

الأخرى، بلغ أعداداً كبيرة جداً، اذا ماقيست بالأشخاص الثلاثة الذين تخلفوا في هذه المعركة !!

ومهما يكن من أمر، فإن هذا النجاح الباهر، الذي حققه الإسلام في تطبيق الحرب الإجماعية، ليس بشيء ذي بال، إذا وزن بميزان العقوبات التربوية التي كانت تفرض على المتخلفين في هذه الحروب، لإلزام الجميع بها .

ان كثيراً من أسر المتخلفين- كما يروي الزعيم محمود شيت خطاب في كتابه الرسول القائد - أبيدت عن بكرة أبيها، في الدول التي طبقت (الحرب الاجماعية) خلال الحرب العالمية الثانية، في القرن العشرين . فأُخذ البريء بذنب الجاني، في قسوة بلغت أوجها في حروب حديثة، وفي أمم راقية .

ولئن كان لهذه العقوبات تأثير فعال في التقليل من عدد المتخلفين، عندما كانت هذه الدول في أوج قوتها، فإنهـــا لم يكن لها ذلك الأثر عندما تداعت قواتها تحت مطارق الحرب، فتكاثر المتخلفون في صفوفها، برغم القوانين الرادعة .

أما الأمة العربية الاسلامية، التي رباها النبي العربي الكريم والتي طبقت آداب الجهـــاد وتعاليمه السامية، في حروبها التي خاضتها تحت لواء الاسلام ... **فلقد سنّ لها هذا الدين الحنيف عقوبة رادعة، ماعرف التاريخ أشد فعلاً منها في النفس،**

ولكنها في الوقت ذاته عقوبة عادلة ، لم تكن لتتجاوز شخص المتخلف الى أحد من أهله الأبرياء ... انها عقوبة تربوية ، كان لها الفضل في صقل نفوس الذين أنزلت بهم ، وإعادتها الى الحيز السويّ الذي ترضى به الأمة ، ليعودوا الى صفوفها ، وهم أمضى عزيمة من اخوانهم ، وأشد اندفاعاً من أقرانهم !!

وإن هذه القصة التاريخية لتعمل على إبراز هذه العقوبة الفريدة في نوعها ، الغريبة في أسلوبها ...

انها الزنزانة المتجولة ...

انها السجن التهذيبي الرفيع ...

لا بل انها المدرسة التربوية الكريمة .

دمشق في ١٠/٥/١٩٧١

« المؤلف »

زنزانتي المتجولة

منذ خمسين يوماً وأنا أعاني ما أعاني من هذه الزنزانة المتجولة من هذا السجن الرهيب الذي ذقت فيه الأمرّين ...

لقد فُرضت علي الإقامة في هذا السجن الذي هو أضيق من حفرة في الأرض ...

إنه سجن صنع على قياس جسدي تماماً ... فلا يكاد يزيد عليه قليلاً أو ينقص فتيلاً ...

وما أحسست بثقله يوماً كما أحسست به اليوم !!

وما شعرت به يضيّق عليّ الخناق كما يفعل بي هذه الساعة !!

إنني في زنزانة رهيبة لايستطيع الإنسان أن يجد منها خلاصاً ...

والذي يضاعف إزعاجي أنها زنزانة متحركة ، تتحرك بي حيثما شئت ، متجولة تتجول بي أينما أحببت ، مطواعة

لاتخالفني في أمر من الأمور ... ولكنها مع ذلك محكمة لاتدع لي متنفساً !!

وايم الحق ... لولا أنها كانت تخشى أن أفقد الحيـاة فأرتاح إن هي سدت علي أنفاسي لكمّت فمي ... ولكنها تركته لي حراً طليقاً لآخذ حاجتي من الهـــواء : حتى أحافظ على رمق الحياة فلا أفر من بين براثنها !!

آه ... ماذا بي ؟ ؟ إنني لا أكاد أرى ما أمامي ... لكأن غشاوة سوداء قد أعشت عيني ؛ فلم يبق لدي القدرة على أن أبصر شيئاً ما !!

رباه !! ماذا دهاني ?? إنني أحس كأن الدنيا تدور ! ! كل شيء من حولي يتحرك !!

إنني أتمسك بما حولي فأجده في مكانه لايتحرك !!

لكأن رأسي هو الذي يدور !!

★ ★ ★

وارتميت على الأرض خائر القوى ...

وسبح الخيال بعيداً إلى ماقبل مئة يوم ... يوم أن كان فصل الصيف القائظ يودع أيامه الأخيرة ، بهجمات عنيفة من الحر الشديد ، وحملات متتالية من رياح السموم ، يلقي بها على الصحراء

العربية ، فتكاد رمالها تنقلب جمراً لاذعاً فرش على أرض الجزيرة العربية ، يشوي كل ما عليه ... حتى الهواء كنتَ تراه يصّاعد في الفضاء ساخناً ، كأنما هو يخرج من موقد حداد .

ولكأنما قد توافقت هذه الهجمات العنيفة من الحر مع نضج الثمار وجني الرطب ... بل كأنما قد سخرها المولى لتنضج ما تأخر من الثمر قبل أن يرحل موسم الصيف الى عام قابل .

وكنت أجاس في بستاني تحت ظلٍ ظليل ، يحميني وهج الحر ، وقد رشت زوجتيَ الماء حولي من كل مكان ، فجلب إلي شيئاً من الإبراد ، حتى إنه ليخيل إلي أنني لا أشعر بشيء من الحر لولا آثار من رياح السموم ، كانت تنتهك علي حرمة الظلال الوارفة التي تحيط بي من كل جانب ، فتلسع وجهي لتذكرني بفضل النعيم الكبير الذي أسبح فيه ، في منأى عما يصيب الناس !!

وكنت أجيل الطرف في الأغصان المتشابكة ، يداعبها الهواء ...

وكنت أستمتع بمنظر أشجار النخيل الباسقة ، وقد تدلت منها عناقيد التمر والرطب ، حين عادت بي الذكرى إلى جيش

المسلمين ، الذي غادر معسكره عند « ثنيّة الوداع » [1] منذ أيام ، قاصداً (تبوك) ، في جمع يراوح عدده بين ٤٠ إلى ٧٠ ألفاً بينهم عشرة آلاف فارس ، ساروا جميعاً ، يقطعون الصحراء متجهين شمالاً ، غير مبالين بما يتحملونه من مشقة ، ويكابدونه من عناء المسير الطويل المنهك ، والحر الشديد المضني .

فقلت لنفسي : أيا كعب ... يا من بايعت رسول الله ﷺ بيعة الحرب ، على السمع والطاعة ، في العسر واليسر ، في المنشط والمكره ... كيف يطيب لك أن تجلس في هذا الظل الظليل ، ورسول الله وأصحابه يعانون من شدة الحر ومشقة السفر ؟؟ وكيف تستسيغ أن تشرب الماء البارد ورسول الله ﷺ وأصحابه لايجدون الوشل [2] من الماء المختلط بالتراب ليشربوه ؟ ؟

لقد بلغني أن الواحد منهم كان يعقر ناقته ليستخلص مافي جوفها من ماء كدر ليبل به الريق ، ويطفىء به لهيب الظمأ ، ثم يضع على كبده قطعة من (كرشها) المبللة بالماء حتى يتنعم

---

(١) ثنية مشرفة على المدينة ، يطؤها من يريد مكة .

(٢) الوشل : الماء القليل في البئر .

برطوبتها[2] !! فهل نفسك خير من نفس « محمد » وأصحابه ؟ !

فثارت عليّ نفسي الأمارة بالسوء تقول : ما كان ينبغي لرسول الله ﷺ أن يبتدر الأعداء باللقاء ، من قبل أن يأتوا إليه ، خصوصاً وأنه يعلم علم اليقين ما أصاب الناس من قحط وجدب ، فلا يكاد الإنسان يجد مايقتات به وهو مقيم في بلده .

فهل يعقل أن يندب الناس للقاء العدو في الوقت الذي حان فيه موعد نضج الثمار ،الوقت الذي ينتظره الناس بفارغ الصبر ??

وإلى أين ؟؟ .. إلى تبوك !!.. إلى بلاد الشام التي تقع على بعد عشرين يوماً ، يقضيها الإنسان في أشد أنواع التعب والإرهاق !! حتى إذا ما عاد الإنسان من هذه الحملة ، وجد أن أمواله التي يتلهف لجمعها ، وثماره التي طال شوقه إليها ، قد ذهبت بدداً ، وأفسدها التأخر عن قطافها !!

ومن أين يجد الإنسان الراحلة والزاد لهذا السفر الطويل ؟ !

ولم أكد أتم كلامي هذا حتى تحركت نوازع الإيمان تردّ

---

(٢) « السيرة الحلبية » : ج ٣ ص ١٥٣ .

على النفس الأمارة وتضع النقاط على الحروف كاملة : لا تعتذر يا كعب بعدم وجود راحلة أو زاد ... ولئن صح لغيرك أن يدعي هذا العذر ، فإنه والله ما اجتمع قط لك راحلتان في يوم من الأيام إلا في هذا الوقت الذي تحاول فيه التشبث بعدم وجود راحلة ... لعمري إنها لحجة أوهى من خيط عنكبوت ! ! .

وأشد من ذلك تهالكاً ، أن تدعي أنه ليس لديك زاد تستعين به على طول السفر !!

ولكن الذي دعاك إلى التخلف عن رسول الله ﷺ إنما هو التكاسل وحب الدنيا .

فهبت النفس الأمارة تدافع عن موقفها بقولها :

– إذا كنت أنا قد وجدت الراحلة والزاد ، فمن أين يأتي غيري بذلك ؟ أما كان الأجدر بمحمد ألا يتعجل في المبادرة بلقاء العدو ؛ حتى لا يقع الناس في الحرج ، وحتى لا تتبـــدد ثروات أولئك الذين أنفقوا أموالهم لتجهيز الحملة ؟ !

وانبرى الإيمان صارخاً :

– أوَ نسيتَ أن « عثمان بن عفان » طابَ نفساً بإنفاق عشرة آلاف دينار ليجهز بها عشرة آلاف رجل ؟ وقدم تسعمائة

بعير ومئة فرس بكامل أحلاسها ؟ ثم أتى بألف دينار ذهباً وصبها في حجر رسول الله ﷺ ليضعها حيث شاء (١) ؟ !

أم إنك نسيت أن « عبد الرحمن بن عوف » بعث بمئة أوقيه ذهباً ، وأن نساء المسلمين بعثن بحليهن ، ليُرصَد ذلك كله من أجل هذه الغزوة ؟؟!

أم ترى أنك نسيت أن « عمر بن الخطاب » أتى بنصف ماله ، وأن « أبا بكر الصديق » أتى بماله كله حتى تخلل بالعباءة ؟ ؟!

وانبرت نفسي المتمردة تلتمس الجواب فقالت :

– أما كان النبي في غنى عن تبديد هذه الثروات والأموال ؟!

ونهض الإيمان غاضباً ، يصفعها مؤنباً :

– ويح نفسي ! كيف أقول هذا ، وهم إنما بذلوا مابذلوا عن سماحة نفس وطيب خاطر ، فعبروا بذلك عن الإيمان العظيم الذي يملأ أفئدتهم ، فكانت هذه المحنة ابتلاء لإيمان المؤمنين وتصنيفاً لهم ؟ !

أونسيت ماكان من « عمر بن الخطاب » الذي كان

(١) « السيرة الحلبية » ج ٣ ص ١٤٨ .

يتلهف دائماً للفوز بقصب السبق على الصديق ؟ إنه ما كاد يرى الفرصة تسنح للتبرع ، حتى أسرع إلى منزله ، وقد قرر في نفسه أنه ليسبقن « أبا بكر » في البذل هذا اليوم .. ثم عمد إلى أمواله فقسمها شطرين ، حَمل أحدهما إلى رسول الله ، فرحاً بهذه المناسبة التي أتاحت له أن يظهر تفوقه على منافسه في أعمال الخير ... وما إن وضع ما أحضره من مـــال بين يدي رسول الله حتى أتى الصدّيق ووضع مالاً له . . وجلس الحضور بين يدي رسول الله ﷺ يستمعون إليه يقول : (ماذا أبقيت لأهلك يا عمر ؟) [1] فتعلو آثار الغبطة وجه عمر ، بعد أن ظن أنه نال أرفع درجة في البذل والعطاء ... ويجيب قائلاً : يا رسول الله أبقيت لهم نصف مالي . ثم يلتفت النبي إلى الصدّيق قائلاً : (وماذا أبقيت لنفسك ولأهلك يا أبا بكر ؟) فيقول : أبقيت لهم الله ورسوله ... فبهت عمر ، وهز رأسه مصيخاً بسمعه إلى رسول الله ﷺ ، يشير إلى مابينهما في المنزلة والمكانة بقوله : (ما بينكما كما بين كلمتيكما) ... وانصرف

---

(١) « السيرة الحلبية » : ج ٣ ص ١٤٨ .

« ابن الخطاب » وقد علم أن إسلامه لم يبلغ إســـلام « أبي بكر » ... وتلقن درسـاً بليغاً ... إنه لن يستطيـع أن ينافس الصدّيق الذي سبقه في الإيمان ... وردّد في أعماق نفسه قول رسول الله ﷺ : (لو وزن إيمان أبي بكر بإيمـــان الناس لرجح) [1] !!

فأين أنت ـ يا « كعب بن مالك » ـ إذا وزن إيمان الرجال ؟

هل ترى في قلبك ذلك الإيمان العملي التطبيقي إذا ماعرض الإيمان على ميزان الأعمال الصالحة ؟

أو ترى أنك واجد لنفسك الأعذار كما فعل المنافقون ؟؟

ولجّت النفس في عصيانها تقول :

ـ لا .. لا هذا ولا ذاك ، وما كان أحد ليتأخر لو أنه وجد الأسباب المقنعة في أن نبادر الروم بالمعركة في شـدة من الحر ، وفي الوقت الذي طابت فيه الثمار ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم !!!

---

(١) ورد في كتاب « نور الأبصار » عن أبي الدرداء (ر) أن النبي (ص) قال : ماطلعت شمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر .

ألم يكن حرياً بمحمد أن يؤجل غزاته هذه إلى مابعد أفول الحر وجني الثمار ، حين يأمن الإنسان على أمواله وثماره ، وإنه مرت علينا سنون مجدبه والناس في مسيس من الحاجة ؟ !

ثم ألم يكن حرياً بمحمد ألا يذهب للقاء العدو ، بعيداً في بلاد الشام ؟

أفلا انتظر العدوّ حتى يأتي إلينا ، فنهبّ إليه هبة رجل واحد ، فنستأصل شأفته ؟ !

وصاح صائح الإيمان :

— ولكن مه يارجل ! إني لأعرفك صاحب عقل راجح !! فمن أين لي أن أفكر على هذا النحو المغلوط ؟؟!

أو لا تعرف — يا « كعب بن مالك » — أن ذهاب المسلمين إلى لقاء العدو في (تبوك) يوفر لنا حماية عسكرية من أجل ضمان حرية انتشار الاسلام خارج بلاد جزيرة العرب ، بعد أن كاد يكتمل انتشاره داخلها ؟؟

أو لاتعلم أن مبادرة الأعداء في عقر دارهم تؤدي الى إخماد روح العدوان في نفوسهم ، كما تؤدي من طرف آخر الى تشجيع القبائل العربية — الخاضعة لسلطان الروم —

في إقبالها على اعتناق الاسلام ، على الرغم من مكافحة الرومان لهذا الاتجاه الجديد الذي أصبح خطراً يتهدد دولتهم من الداخل ؟!!

أم تراك تجهل أن الأخبار قد وصلت من بلاد الشام تشير إلى أن الروم قد جمعت جموعاً غفيرة في منطقة تبوك ، وأنهم قدموا مقدماتها إلى البلقاء[1] ، تمويهاً وتضليلاً ؟ !

أفإن حلت الروم بأرضنا ، وباغتتنا على حين غرة ، أو كانت تترك لنا مجالاً للاستعداد أو التأهب ؟ أم إنها كانت تطلب بديلاً عن القضاء على شأفة هذا الدين الحنيف ، وسبي النساء ، وانتهاك الأعراض وسلب الأموال والخيرات التي أنت تطمع بها وتخاف عليها ؟ ؟

والله لقد طمع الروم بالقضاء على شأفة هذا الدين بعد إذ علم هرقل ما أصاب المسلمين من سنين أهلكت أموالهم ، خصوصاً وأن سرعة انتشار الإسلام بين نصارى العرب قد أقضت مضاجع قيصر الروم ، ودفعته إلى التفكير بالقضاء على هذا الدين الجديد قبل أن يستفحل أمره !!

---

(١) البلقاء : تقع شرقي القدس في المنطقة المحيطة بعمان

والله إن رسول الله ﷺ ، لعلى حق حين قرر أن يباغت العدو في عقر داره ، قبل أن يستكمل استعداداته ، وينظم صفوفه في الهجوم على أراضينا ، فما غُزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا !!..

ولعمري ان هذه المبادأة الحربية من رسـول الله ، لتفعلن فعلهـا في نفوس الروم ، وليقذفن الله بهـا ، في قلوب الذين كفروا الرعب ، فإما أن يكونوا لقمة سائغة ، وإما أن يلوذوا بالفرار ! !

وما أرى إلا أن هذه الحملة التي قام بهـا رسول الله ﷺ سيكون لها الأثر البين في رد العدوان المبيت على هذه الأمة ، وردع العدو عن التفكير في أية محاولة جديدة للاعتداء .

* * *

ولكن موجة الحر القائظ التي هبت يومذاك ، اخترقت الظلال ، وذهبت تلسع وجهي ، فصحوت من هواجسي هذه ... صحوت لألتفت حولي ، فأحمد الله على هذا الظـــل الظليل ، والنعيم الموفور ... وناديت أم البنين لتعدّ لي مقيلًا ، أنام فيه

ملء جفوني ، في منجاة من رمال الصحراء المتوهجة وصيفها القائظ !!

فما الداعي لتلك الهواجس التي تراود ذهني المتعب ؟ ! !

وما شأني وشأن أولئك الذين رحلوا بعيداً عني ؟ ؟ !

ووجدت لنفسي حجة أتمسك بها ، كان لها أكبر الأثر في إزاحة كابوس الخواطر التي بدأت تؤرقني وتبعدني عن نعيم الدنيا ...

ورحت أخاطب نفسي بما يقنعها فقلت :

ومهما يكن من أمر فإن من ذهب مع رسول الله كانوا أكثر من أن يستطيع إنسان حصرهم ومعرفة من حضر ومن تخلف ! !

وأغلب ظني أن رسول الله ﷺ ، لن يدرك تخلفي عنه .

* * *

وفي المساء بينما كنت أتطوّف في بستاني ، أحمل عنقاً رداحاً من الرطب الشهية ، سمعت صوت « الجد بن قيس » يناديني ، فأجبته ودعوته ليجلس على أريكة ، كنت أعددتها

لضيوفي – وما أقلهم في هذه الأيام ! ! لقد ذهبوا جميعـــاً ، وأظنهم الآن قد أصبحوا على تخوم بلاد الشام – ثم أقبلت عليه مرحباً به وقلت :

– ما وراءك يا « أبا قيس » ؟

فأجابني وعلائم الامتعاض بادية على وجهه :

– لا شيء ، لقد ذهب « محمد » بخيرة شبابنا ، يذيقهم الهلاك ألواناً ، قبل أن يصل بهم إلى الهلاك الأبدي المحتم !!

فتجاهلت ما يريد أن يخوض فيه من حديث ، وأقبلت عليه أطرح أسئلة تبعده عن هذا المضمار ، فقلت :

– وما أحوالك أنت يا سيد بني ساعده ؟؟

غير أنه أصر على أن يعود إلى ما يريد فقال :

– وكيف يكون حـــال رجل مثلي ، بعد الذي فعله به « محمد » ؟؟

إن «محمداً» لم يكتف بكل مافعله بأولئك الأغرار المتهورين .. بل بدأ يتدخل في شؤوننا نحن زعماء القوم !! وهاهو ذا يحرض علينا أبناءنا ! !

فاستغربت حديثه ، فالتفت إليه أقول :

— وأي شيء تريد بذلك ؟ لعله لا علم لي به .. خبرني يا « أبا قيس » .

— أما سمعت بما كان من ابني « قيس » عندما ذهبت إلى « محمد » أعتذر عن الغزاة معه ؟

— أو أذن لك رسول الله ؟

— لقد أشار « محمد » إلى قتال الروم فقال : (يا أبا قيس ! هل لك العام في جلاد بني الأصفر) [1] ... فقدمت بين يديه حجة مارأيت أني احتلت بمثلها قط !! ... قلت : يا رسول الله « ائذن لي ولا تفتني فو الله لقد عرف قومي أنه مامن رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر — الروم — أن لا أصبر » [1] .

فابتدرته قائلاً :

— خبرني بالله ! هل وافقك رسول الله على هذا ؟؟

— لقد أعرض عني في بادىء الأمر ... ولكني شددت

---

(١) « السيرة الحلبية » : جـ ٣ ص ـ١٥٠ـ .

عليه في الطلب ، فلم يجد بداً بعد ذلك من أن يأذن لي ، على كره منه لذلك .

وشعرت بنفسي تتوجس خيفة من نفاق صاحبي ، ووجدتني أفاجئه بالقول :

– ويحك يا « أبا قيس » ! لعلك أنت الذي أنزلت فيه الآية الشريفة : « ومنهم من يقول : ائذن لي ولا تفتني ، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » ..

لعمري ... لكأني أراها تنطبق عليك انطباق الكف على الكف !

فامتعض صاحبي امتعاضاً شديداً ، ولكنه تظاهر بعدم المبالاة ، وكأن الأمر لا يمسه من قريب أو بعيد ، وقال :

– لا ... إنها لم تنزل بسببي ... فقد أذن لي محمد ..

وتنهد الرجل من الأعماق ... وضرب بيده على أريكة أمامه ... وأخذ شارباه يتراقصان وهو يقول :

– ولكن ابني « عبد الله » قد ظن بي ذلك [1] ؛

(١) راجع « السيرة الحلبية » ج ٣ ص ١٥٠ .
ويروى أن « الجد بن قيس » تاب من النفاق في أخريات أيامه ، وحسنت توبته .

فاندفع يوبخني ويعنفني متهماً إياي بالنفاق !!

وا أسفا على العقول الراجحة تتهم بالتقصير ، ولا تجد من يصيخ لها سمعاً ، وينتفع بنتاجها !!

وهز رأسه وهو يقول : وهل يريدون مني ، حتى أبرأ من النفاق الذي يتهمونني به ، إلا أن أكابد الموت ، وأعرض نفسي للخطر ، بل للهلاك المنتظر ، كما فعل أولئك الفتية الطائشون ؟!

ثم التفت إلي يقول : بالله عليك ، خبرني ... متى كانت العرب تتجرأ على الوقوف في وجه بني الأصفر ؟؟ ومتى كانت العرب تفكر في تحدي الروم في عقر دارهم ؟؟

لعمري إنها لأفكار صبيان طائشين ... وما كان لمحمد أن يستجيب لهم !!

إن ملوك بني غسان ـ الذين ما عرف العرب ملكاً أعظم من ملكهم ـ دانوا لعظمة الروم وقوتهم !!

ووضع « الجد بن قيس » يده على فمه ، وخفض من صوته يقول فيما يشبه الهمس ، خشية أن يسمعه أحد :

ـ غداً ستأتيك الأخبار ... ولا ندري كم سيكون عدد الناجين من قبضة الروم !!

وكانت عبارته الأخيرة هـذه ، طعنة خنجر في قلبي ، أصابته فأدمته .

فلم أطق صبراً ، فاعترتني حِدّة ، وصرخت في وجهه أقول :

– مه يا رجل ! كفاك ثرثرة !!

والله لكأني أراك تعرّض برسول الله ﷺ وتظهر الشماتة به وبمن معه ... من قبل أن تحل بهم الهزيمة !!

وبسرعة خاطفة انطلقت بي الذاكرة إلى تخيل الموقف من جميع نواحيه ، فشعرت بعظيم مسؤوليتي عندما قصرت عن اللحاق برسول الله ﷺ ...

وقبل أن أفسح له المجال في الرد على كلامي هـذا تابعت قائلاً :

–ألم يكفنا ، فضيحة وعاراً ، أننا تخلفنا عنه وخذلناه ، حتى نكون نذير شؤم ، وكأننا نفرح بمصاب رسول الله والمؤمنين معه ؟! لعمري لن يخذله الله !

وبصوت هادىء تشيع منه روح السخرية قال :

– متى كنت شديد التحمس يا هذا ؟!

أولست متخلفاً ـ مثلنا ـ عن « محمد » وصحبه ؟!

أولست ممن عرّض بهم « محمد » في آياته « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا في الحر »[1] ؟!

أولست ممن توعدهم « محمد » بقوله : « قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلاً ، وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون »[1] ؟؟

– بلى ، تخلفت ... ولكني والله ما كنت أقصد التخلف ... غير أن نفسي غلبتني ... ولولا شدة الحر ، وخوفي على الثمار وقد حان قطافها لما تأخرت عن رسول الله !!

لوددت لو أني كنت معهم .. ولكن ...

– ولكن ماذا يا كعب ؟ خبرني بالله !

– لقد كنت أظن أنني أستطيع أن أجمع ثمار بستاني في يومين أو ثلاثة ، ثم ألحق بهم حين تذهب شدة الحر .

---

(١) « سورة التوبة » : الآية -٨١- .

(٢) « سورة التوبة » : الآية -٨٢- .

وبخبث ظاهر بادرني يقول :

- ولكنك وجدت ظلّا ظليلًا ، ومالاً كثيراً ، ففضلت نعيم الدنيا على نعيم الآخرة !! أليس كذلك يا كعب ؟؟

فلذت بالصمت قليلًا وأنا أود لو أن الأرض انشقت لتبتلعني ، قبل أن أجابه هذا الموقف المحرج المخزي ... ولكن ذلك لم يكن ميسوراً ... ثم ما لبثت أن قلت :

- لا والله ... ولكني طفقت أتجهز مع الناس[1] يوم طلب منهم رسول الله الجهاز استعداداً للمسير الى الشام ، فقلت في نفسي : انني قادر على ذلك متى أردت ، ولست بحاجة الى أن أتجهز قبل أوان الرحيل ... فلم أهيىء من جهازي شيئاً ... ولم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر الناس بالجد ، **فأصبح رسول الله ﷺ ، غادياً والمسلمون معه ، ولم أهيىء من جهازي شيئاً ...**

فقلت : تجهز الناس وسبقوني ... ولم يبق بهم حاجة إلي .

وقلت : أتجهز بعد يومين أو ثلاثة ... ثم ألحق بهم ... فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز .. فرجعت ولم أهيىء من جهازي شيئاً ...

(١) راجع « تفسير ابن كثير » : جزء ٢ ص ٣٩٧ .

ثم غدوت فرجعت ولم أهيىء شيئاً !!

فبادرني « أبو قيس » بقوله :

ـ لكأني بك في حيرة من أمرك ؟! لِمَ هذه الحيرة كلها ؟؟ هلا حزمت أمرك منذ البداية ؟؟

فهززت رأسي وأنا أقول :

ـ لعن الله الشيطان ... لقد وقعت في أحابيل هـذه النفس الأمارة بالسوء ... فـلم يزل ذلك التردد يتمادى بي حتى أسرع الناس في المسير ، وتفارط الغزو ، وصار بعيداً عني مناله !!

فالتفتَ الي « أبو قيس » يقول :

ـ ففرحتَ بالبقاء هنا ؟؟

ـلا يا « أبا قيس » ـ هكذا قلت ـ والله لقد هممت أن أرتحل فألحق بهم ، وليتني فعلت ... ولكن يبدو أنه لم يقدَّر لي ذلك

ولـئن تخلفت عـن رسول الله ﷺ ، فإنه ليعز علي ألا أكون بينهم .

ولـكم أتمنى لو أني استطعت منذ البـداية أن أتغلب على شيطاني بعزيمة صادقة ... إذن لرحلت معهم ، ولم أستمع إلى أكذوبة غداً تلحق بهم وبعد غد !!

حقاً .. إن الشيطان ليدخل إلى نفس الإنسان فيصل إلى غرضه عن طريق التسويف والمماطلة .

وبنظرات ملؤها المكر والخديعة التفتَ إلي « ابن قيس » يقول :

–لا يا « كعب » ... أعتقد جازماً أنك لو سرت غازياً معهم لعدت قبل أن تغادر تخوم المدينة ، كما فعل معظم الجيش، أولئك الذين عادوا مع زعيم الخزرج ، « عبد الله بن أبي » بحيث لم يبق مع « محمد » إلا أقل من نصف الجيش[1] !

فثارت ثائرتي لهذا التعريض والتخذيل ، وصحت به أقول :

– كذبت يا عدو الله ! فلن يعود مع « عبد الله بن أبي » إلا المنافقون الذين في قلوبهم مرض ... إنهم ما خرجوا إلا رياء

(١) يروي « ابن جرير الطبري » في الجزء الثالث من تاريخه الصفحة ١٠٣ أن معسكر « ابن أبي » كان فيما – يزعمون – ليس بأقل العسكرين . والحقيقة هي ما رواه صاحب « السيرة الحلبية » ج ٣ ص ١٦٥ من أن عددهم كان لايتجاوز بضعة وثمانين رجلاً .

وسمعة ، وما خرجوا إلا ليفتّوا في عضد المسلمين ، وليوهنوا عزيمتهم ...

ليتني كنت مع رسول الله ، إذن لأريتك ثباتي على ما أقول ، ولعلمتك أنه لا يمكن لمؤمن أن يخذل رسول الله !!

ولكن « الجد بن قيس » أجاب بهدوء المتخابث :

– إن جدالك هذا لا يغني عن الحقيقة فتيلاً ...

لقد عسكر « محمد » وصحبه على (ثنية الوداع) ، في ظاهر المدينة ، وعسكر « عبد الله بن أُبَيّ » أسفل منه ، على جبل ذباب ، فلما سار « محمد » تخلف عنه « عبد الله بن أبي » ، ويروي الناس ، أن من كان مع « ابن أبيّ » لم يكن بأقل العسكرين !!

فازددت ثورة وغضباً ، وطفقت أقول :

– إنه لن يسير مع « ابن أبي » إلا المنافقون وأهل الريب ، بالغاً ما بلغ عددهم !! وهل هم إلا مرتزقة جمعهم صاحبك « ابن أبي » ؟ !

ووالله إنهم لم يعودوا من (ذباب) إلا بعد أن رفض رسول الله ﷺ ، أن يستعين بهم .

واستجمعت في نفسي كل ما لدي من تصميم .. وأكدت كل نبرة من نبرات صوتي وأنا أقول :

ـ ولينصرن الله رسوله والمؤمنين برغم أنف من كره !

★ ★ ★

وتوقف الصراع الدائر بيننا فجأة ، لسماع صوت « ابن أبي » يقول :

ـ أين أنت يا « كعب » ؟

ـ ها أنذا ... تفضل ... عندي سيد بني ساعده « الجد ابن قيس » .

وسلم « عبد الله بن ابي » ، وجلس على الأريكة متسائلا :

ـ ما لي أرى أصواتكما تختلط ، فيما يشبه الصخب ، وكأنكما مشغولان بغير مايشغل بال أهل المدينة ؟ ؟

فالتفتنا إليه متلهفين ، نقول بصوت واحد :

ـ ما وراءك يا « عبد الله » ؟ !

ـ أما سمعتما بما سمع به الناس ؟

ـ وماذاك يا « عبد الله » ؟؟

ـ أخبار « محمد » وصحبه ... أولئك الذين ذهبـــوا ليؤدبوا « قيصر » ملك الروم !!

فبدا علي الاهتمام والرغبة الملحة في معرفة الخبر، على الرغم مما يحمل بين طياته من تهكم لئيم ، فقلت :

ـ ماذا حدث ؟ بالله خبرني !

وبصوت المتثاقل المتشائم قال :

ـ إنه لن يصل إلى بلاد الشام إلا وقد انفتل عنه أصحابه كلهم ... مازال كل يوم يأتينا نفر من أصحابه ، وقد تركوه في الطريق ، قبل أن تدور رحى الحرب وتقرع السن بالسن !! ولا أظنه يجابه الروم إلا وقد نبذه كل من كان معه ...

وبلهجة الشامت تابع يقول :

ـ إن محمداً يرفض حكمة الشيوخ ليتبع أهواء الشباب !!

والله لكأني أجد اليوم مصداق حديثي مع فئة من قومي، يوم أن كنا على جبل (ذباب) ، قبل أن أفترق عن « محمد » ـ ولعل ذلك الحديث هو سبب موجدة « محمد » عليّ يومذاك ورفضه لنصرتي إياه ـ لقد قلت لهم بصراحة ووضوح : « يغزو

محمد (بني الأصفر) مع جهد الحال ، والحر والبلد البعيد ، مما لاطاقة له به »[1] ؟

ثم تابع حديثه الذي تشع منه روح السخرية اللئيمة قائلاً :

– قلت لهم يومذاك : « يحسب محمد أن قتال (بني الأصفر) معه اللعب ؟! والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال »[1] !!

« أبو قيس » : – أجل والله ... لقد علمت أن نفراً من العقلاء الأحرار اجتمعوا في بيت « سويلم » اليهودي ، وتداولوا الأمر فيما بينهم ، ولا يزال قول ذاك الشيخ اليهودي الحكيم يدوي في أذني ...

« عبد الله » : وماذا قال ؟؟

« أبو قيس » : لقد حذرنا من قراع (بني الأصفر) ولكن من يسمع ؟!

لقد قال والحكمة تشع من كل حرف ينطق به :

---

(١) « السيرة الحلبية » جزء ٣ ص ١٥٠

« أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟؟ » [1]

«عبد الله» : — أجل والله ! إن جلاد (بني الأصفر) ليس كقتال العرب بعضهم بعضاً ... إنهم قوم أصحاب حضارة عريقة ، وخبرة في الحروب أصيلة . . ولهم من الجيوش الجرارة المدربة ما لاقبل للعرب به !!

وبعد فترة وجوم مني ، كنت أقلب خلالها نظري بين الرجلين وأنا في حيرة شديدة من أمري ، لا أدري ما أفعل ، صحت قائلًا :

— إنكما والله لتتكلمان بما كان منكما ، وكأن القوم قد أصيبوا بفاجعة !!!

أنصتا أيها الغرابان الأسحمان ، فإني لا أجد منكما إلا نعيقاً !! والله إن نياتكما أنتما وأضرابكما من المنافقين لتتكشف مع الأيام لكل ذي عينين ، وإن ما تكتمان من نفاق ليبدو اليوم ظاهراً جلياً !!

---

(١) « السيرة الحلبية » جزء ٣ ص ١٥٠

ولا أدري ... هل سيعود رسول الله ﷺ من غزاته فيضرب أعناقكم أيها المنافقون ؟؟ أم تراه سوف يرجو ، مرة أخرى ، أن تتوبوا إلى رشدكم ، وتعودوا عن نفاقكم إلى دين الله الحق ؟!!

ولكن « ابن أبيّ » لم يبال بقسوة كلامي هذا ، بل غير نمط حديثه ليخفف من حدة اندفاعي فقال :

ـ أتدري يا « كعب » كيف يقابل صاحبك تفرق رهطه عنه في أحلك الساعات ؟؟

ولم ينتظر مني جواباً ... بل تابع حديثه يقول :

ـ إنه يخشى على من تبقى معه ؛ فكلما فرت فئة وتساءل الناس عنها قال :

إن يكن فيهم خير فسيُلحقهم الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك ، فقد أراحكم الله منهم (١) !!!

وضحك ضحكة صفراء قال بعدها :

(١) راجع « السيرة الحلبية »: ج ٣ ص ١٥٢ و « تهذيب سيرة ابن هشام » ج ٢ ص ١٠٢ .

ـ ولا أدري متى سيرتاح من جميع من معه !!

فثنى « أبو قيس » على حديثه قائلاً :

ـ أتدرون آخر من فر من « محمد » وأصحابه ؟؟

ـ من ؟؟

ـ « أبو ذر الغفاري » !!

ـ وكيف كان ذلك ؟؟

ـ يا له من فطن !! هكذا قال « الجد بن قيس » وهو يعبث بلحيته الخفيفة ... ثم اتكأ على يده اليمنى وأنشأ يقول :

ـ لقد تظاهر أبو ذر أن بعيره قد أبطأ به السير ، وتشاغل بإصلاح رحله ، حتى تخلف عن الركب ... ثم أدار ظهر بعيره ، لا يلوي على شيء إلا النجاء بنفسه قبل أن يفوته وقت النجاء .

فلم أتمالك نفسي تجاه هذه الفرية التي يفتريها منافق بحق الصحابي الجليل « أبي ذر » ، فإذا أنا أنفر في وجهه قائلاً :

كذبت أي عدو الله ... لا يمكن « لأبي ذر » أن يخذل رسول الله ساعة العسرة ، فهو من المؤمنين الذين بايعوا رسول الله على الموت .

وبلهجة الهازىء الساخر ، أجابني « عبد الله » :

ـ أجل بايعوه على الموت !! أولم تكن أنت ممن بايعوه على الموت في العقبة، وشهدت معه الغزوات ، فإذا أنت تخذله اليوم ؟!!

ـ إني اذا ما تخلفت عن رسول الله ﷺ، فإنما تخلفت لشيء من العذر ... **واني لأشعر ـ مع هذا ـ بتقصيري الشديد ... لوددت لو أني أستطيع اللحاق به ... ولو أني كنت معه ما خذلته قط .**

وذهب « ابن أبي » يستعين بذاكرته ... لعله يجد من يحتج بتخلفه من أولئك الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الموت، بعد إذ أعياه أن يقيم من تخلفي دليلاً على خذلاني رسول الله ﷺ ...

وظن أنه قد وجد ما يبغي فبادرني يقول :

ـ ألم يبايعه « هلال بن أمية » و«مرارة بن الربيع » على الموت في بدر ؟؟

ـ أجل لقد بايعاه ! ولكن من يدري ؟ لربما كان لكل منهما العذر في التخلف عن هذه الغزوة ! ولو كانا معه عندما يحتدم الصفان لما وليا ظهرهما له ؛ إنهما يعرفان جيداً قول الله تعالى :
« ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى

فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير »[1]

ثم تابعت حديثي أقول :

– وما أعتقد أن من شهد بدراً يهاب عدواً لله أو يخذل رسول الله .

وهنا تنحنح « أبو قيس » ، وعدل في جلسته قائلاً :

– وما رأيك في « أبي خيثمة » أليس من أصحاب بدر ؟؟

هل تظن أنه تخلف عن « محمد » لعذر ؟؟

ألا ترى أن « محمداً » لم يكن عند « أبي خيثمة » خيراً من البقاء في ظل بارد ، وماء مهيأ ، وزوجين حسناوين كل منهما قد رشت له عريشتها في بستانه ، وهيأت له الطعام ، وبردت له الماء في هذه الأيام الشديدة الحر ؟!!

– لقد جعل الله كيدك في نحرك يا عدو الله ...

لقد أنطقك الله بما هو حجة عليك !!

ثم تابعت حديثي بلهجة أقل حدة :

(١) « سورة الانفال » الآية –١٦– .

حقاً لئن تخلف «أبو خيثمه» ، فإنه منذ أيام كفّر عن تقصيره ، واستدرك قبل أن يفوته الأوان ...

وتوقفت قليلاً قبل أن أطلق من رئتي نفثة الهواء التي تحمل زفرة حزن عميق وأنا أقول :

– آه ... ليتني كنت معه ... إذن لفزت فوزاً عظيماً !

وجاشت الثورة في أعماق نفسي ، وتمنيت لو أن لي فرساً سريعة العدو ، كفرس أبي خيثمة ، إذاً لامتطيتها وسرت مسرعاً ، لا ألوي على شيء الا اللحاق برسول الله !!

وتخيلت رسول الله ﷺ ، ينظر إلى الأفق البعيد ، فيرى خيال شخص بعيد ؟ فيقول : كن « أبا خيثمة » ... ويتلهف الناس ... ناظرين ، من عساه يكونُ ذاك الراكب المسرع ؟ وإذا هم بعد لأي يعرفونه ... إنه « أبو خيثمة » ... فيهرولون مسرعين إلى رسول الله ﷺ ، يبشرونه بصدق نبوءته ، وأن « أبا خيثمة » قادم يطوي البيد طياً ، يدفعه شوقه وحبه وإيمانه [1] .

---

(١) « السيرة الحلبية » ج ٣ ص ١٥٣ .

ولم يكتب لي أن اسبح في تأملاتي ، هـــذه او أن استمتع بثورة نفسي تلك ، أو أن أجد الوسيلة لتحقيق ما كنت افكر فيه من اللحاق « بأبي خيثمة » ... ذلك أن « عبد الله ابن أبي » قطع علي ذلك كله عندما هزني قائلاً :

ماذا بك يا « كعب » ؟ لعلك تفكر في أكـذوبة تدبّجها ! والله ما سمعنا عن « أبي خيثمة » شيئاً مما تقول :

فصحت به ، وكأني أريد ان أحطم ما في نفسه من نفاق :

إنك لا تسمع إلا ما يثبط العزائم ... شأنك في هذا شأن الجرذ ، لا يقع إلا على الخبائث !!

هنا سارع « الجد بن قيس » إلى التدخل في الحديث حتى يحول دون تحوله إلى خصام فقال :

ـ هيه يا « كعب » ! ماذا سمعت عن « أبي خيثمة » ؟ إنك لم تخبرنا بعد بما سمعت عنه !

فأنشأت أروي الحكاية من اولهـــا ، ونشوة الظفر تعلو ملامح وجهي ، فقلت :

ـ لقد دخل « أبو خيثمة » بالأمس على اهله في بستانه ،

وكان يوماً كما تعلمون شديـد الحر ؛ « فوجد امرأتيه في عريشتين لهما ، قد رشت كل منهما عريشتها ، وبردتا فيه مــــاء ، وهيأتا طعاماً »[1] فلما دخل ، نظر إلى امرأتيه وما أعدتاه مما يدخل السرور الى القلب ...

غير أن ملامح السرور لم تلبث أن امّحت من وجهه ،عندما تذكر رسول الله ﷺ وما يلاقيه في الطريـق من مشقات وعنت فقال يخاطب نفسه :

– « رسول الله ﷺ في الحر و « أبو خثيمة » في ظل بارد ، وماء مهيأ ، وامرأة حسناء »[1] ؟

وأصدر حكمه المبرم بقوله :

– ماهذا بالنصَف .

ثم التفت إلى زوجتيه يخبرهما بما عزم عليه فقال :

« والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، فهيئا لي زاداً »[1] .. وبقي « أبو خثيمة » واقفاً في

---

(١) « السيرة الحلبية » : جـ ٣ ص ١٥٢ و « تهذيب سيرة ابن هشام » جـ ٢ ص ١٠٠ .

الحر لايدخل عريشة واحدة منها حتى هيأتا له الزاد ... ثم قدم بعيره فارتحله ، وأخذ سيفه ورمحه ، ثم خرج مسرعاً في طلب رسول الله ﷺ ..

وبزهو المنتصر ، التفتُ إلى « ابن أبي » أقول :

– وأغلب ظني أنه سيصبّح رسول الله بعد يومين أو ثلاثة !

وهنا عدت بظهري إلى الخلف وأسندت رأسي . . تاركاً نفسي على سجيتها ؛ لتأخذ قسطاً من الراحة اللذيذة بعد الظفر .

ومن أعماق نفسي ، وعلى غير شعور مني ، كنت أردد :

– ليتني كنت معك يا « أبا خثيمة » !! اذن لفزتُ فوزاً عظيما .. ولكن فات الأوان .. وأغلب ظني أَني اذا مالحقت بهم فلن أصل اليهم الا وهم في طريق العودة ..

وذهب « ابن أبي » يلتمس مايثبط به همتي .. فلم يجد خيراً من أن يذكرني بما يعانيه الرسول ﷺ وأصحابه من عناء يفوق كل تصور ، فقال :

إنك لاتدري ماحل بمحمد وصحبه !! أوما سمعت ما أصابهم من عطش في هذا الحر الشديد ؟ !

ـ بلى ، سمعت بذلك .. وسمعت أيضاً ان الرجل منهم لينحر بعيره ليشق كرشه ويعصرها ، فيشرب ماءهـا الكريه ثم يضعها على كبده الحرى ..

وماذا يضير المؤمن أن يتحمل في سبيل الله مايتحمـل هؤلاء أليس ذلك دليلًا على عظيم ايمانهم ؟؟ .

وشعر « ابن أبي » بخيبة أمل كبرى في أن يجتذبـني إلى طرفه عن طريق الإقنـاع ... ولذلك لجأ إلى أسلوب آخـر في المراوغة... لجأ الى السخرية اللاذعة فقال :

ـ لماذا لم يدعُ محمد ربه ليزيل مابهم من غم ، ويهزم عدوهم ويريح الناس من القتل والقتال ؟؟

فابتدرته بالقول :

ـ حين يفقد الوسائل المادية كلها ، فانه لابد داع ربـه ، وإن الله ليستجيب له ... أما مادام بالامكان أن يحقق المراد بما لديه من وسائل مادية فإنه لن يتراجع عن طريق الكفاح أبداً!

وهل ترى أن المعجزات وخوارق العادات تنفع من في قلبه نفاق صراح ... لعمري لو أنها كانت تجدي لما رأينا بينكم من في قلبه مثقال ذرة من نفاق .

وعاد « عبد الله » ليراوغ في حديثه ، فذكرني مرة أخرى بما يعانيه رسول الله ﷺ ، وهو يظن أنه يستطيع أن يؤثر في نفسي بكثرة ترداد مايتحمله جيش رسول الله ﷺ من مشقات فقال :

— أو ما علمت ما أصابهم من جوع ؟ لقد نفد زادهم وأشرفوا على الهلاك ... حتى إن الثلاثة منهم كانوا يقبلون على تمرة واحدة يمصونها من شدة الجوع [1] !

فقلت في تحد وإصرار :

— إن لهم رباً لابد الا ان ينقذهم في الوقت المناسب ... ولن يضير قوماً ان يجوعوا اياماً ... او تظن ان الجهاد لعب ولهو واستعراض للعضلات وسعي وراء الغنيمة ؟!

وكان « الجد بن قيس » صامتاً ، يراقب حوارنا عن كثب. فوجد ان لافائدة من هذه المناقشة ، فعمل بخبث شديد على ان ينتقل من مرحلة الدفاع إلى حيز الهجوم ، بالنيل من النبي ﷺ

---

(١) « السيرة الحلبية » ج ٣ ص ١٥٩ .

وصحبه .. فلم يجد أفضل من ان يجتذب انتباهنا بنبأ مفاجيء يكون له وقع الصاعقة .. فابتدرنا بقوله :

– او سمعتم ياقوم !

– ماذا ؟

– لقد نام « محمد » واصحابه إلى مابعد شروق الشمس ، فما ايقظهم إلا حر الشمس تلفح ظهورهم ، وقد فاتتهم صلاة الصبح »[1] !

فنهض « ابن أبي » من مكانه وشد يداً على يد ، وكاد يرقص طرباً وهو يقول :

– مرحى ابا قيس ! ! مرحى !

ثم عاد الى الجلوس ليسترخي وهو يقول :

– لقد وجدنا السبيل لننام ملء جفوننا ... إلى مابعد شروق الشمس ... فإن لنا أسوة بمحمد وصحبه .

فالتفت إليه « أبو قيس » يقول :

– أو ترى نفسك اكتشفت شيئاً جديداً يا « عبد الله » ؟ ؟

---

(١) راجع « السيرة الحلبية » ج ٣ ص ١٥٦ .

لقد وجدنا السبيل إلى ذلك من كلام محمد نفسه ... لقد ...

غير أني لم أستطع ان أتمالك نفسي من الغضب ... ووجدتني أقاطعه في الكلام واقول بحدة وعنف شديدين :

— وكيف تتجرأ — ياعدو الله — على ان تكذب على لسان رسول الله ؟

غير ان « ابا قيس » لم يبال بكلامي هذا ، وتابع حديثه يقول :

— لقد اقبل اصحابه بعضهم على بعض يلومون انفسهم بتفريطهم في الصلاة ، فالتفتَ إليهم يسألهم : (ماهذا الذي تهمسون من دوني ؟!)[1] فقالوا : بتفريطنا في صلاتنا ..

والتفت « أبو قيس » إلينا يقول :

— اتدرون بماذا أجابهم ؟؟

فقال « ابن ابي » : هات — يارعاك الله — .

فأردف « ابن قيس » يقول : لقد اجابهم « محمد » بقوله :

ـ (اما لكم فيّ أسوة حسنة ؟)[1] .

---

(١) « السيرة الحلبية » جـ ٣ ص ١٥٧ .

« ابن ابي » : جميل .. جميل والله .. لنا في محمد أسوة حسنة .

«ابو قيس » :مهلاً ياعبد الله .. لقد وقف محمد بعد هذا يلتمس التبرير لكل نائم فقال :

– (ليس في النوم تفريط ، إنما التفريط على من لم يصلّ الصلاة ، حتى يجيء وقت أخرى) [1] .

– أفٍّ لكما ..

قلتها معبراً عما اضطرَبت به نفسي من تنمر ، ثم تابعت حديثي أبين الحقيقة لمن يعرفها مثل معرفتي إياها ، ولكنه يتعامى عنها لهوى في نفسه :

– كلكم يعلم أن رسول الله ﷺ ، لم يتخلف عن الصلاة للهو او لعب ، بل إنه سرى الليل كله ، حتى إذا أرهقه السير الطويل ، جاس وصحبه ، يستريحون من عناء السفر المضني ؛ ووكل واحداً منهم ينظر لهم الصبح ليوقظهم ...

ولكن النوم غلب على ذاك الذي كان يرعى الفجر ؛ فلم يستيقظ منهم أحد إلا بعد أن ارتفعت الشمس في كبد السماء ،

---

(١) « السيرة الحلبية » ج ٣ ص ١٥٧ .

فماذا ترى في هذا يا « ابن قيس » ؟ ! وهل يكلف الله نفساً إلا وسعها ؟ !

وبعد أن صمتُ لحظة ، أجلت نظري خلالها في وجوه القوم ، أتفرس وقع حديثي في نفوسهم ... تابعت أقول :

– لكأني بكما تترقبان كل صغيرة او كبيرة ، لترياها بمنظار خاص ، وكأن في نفسيكما عجزاً عن قبول الحقيقة عارية ! أو لكأن في أبصاركما عشى عن رؤية نور الحق !

★ ★ ★

وهب الرجلان يبغيان الانصراف ، بعد أن استنفدا كل ما لديهما من سهام يستطيعان أن يوجهاها إلى أمثالي ... ولكن الله منّ علي فأعانني وسلمني من حبائلها .

وشعر كل منهما بمرارة الخيبة بعد إذ أخفقا في ضمي إلى صفوفهم ... صفوف المنافقين .

وقبل أن ينصرفا ، توقف « ابن أبي » يقول متهكماً ، وهو يكاد يتميز من الغيظ :

– هل ترى أن صاحبك سينتصر بهؤلاء الجياع العطاش العراة ، الذين استجدوا رواحلهم ... فأخذوا مما جادت به نفوس الأغنياء سراة القوم ؟!

– وهل تعتقد أن صاحبك سيستطيع النجاة بنفسه إذا ما قابل جيوش الرومان المنظمة المدربه ، التي تفوق صحبه في العدد والعدة والخبرة في فنون القتال ؟

وضحك ضحكة صفراء كدت أتفجر منها حنقاً ... ثم مال على أذني هامساً :

– أو ما علمت أن « هرقل » قد وزع ، رواتب سنة كاملة ، على قواته النظامية ، كما وزع كثيراً من المال على القبائل العربية الخاضعة لسيطرته ، تشجيعاً لهم على معاونة جيشه ؟

ثم انصرف مع « الجد بن قيس » وهما يختالان زهواً بما يتخيلان من نتائج يكون لها الأثر البين ..

* * *

ومكثت وحدي في بستاني ، أفكر في هذه الحرب التي دعا إليها رسول الله ﷺ .

– حقاً لقد دعا رسول الله ﷺ إلى حرب اجماعية حشد فيها قوى الأمة كافة ، المادية منها والمعنوية والعقلية، وسخرها جميعاً لأغراضه الحربية ، فلم يبق في المدينة الا منافق أو معذور ! !

–إن العرب لم تعرف مثل هذه الحرب، ولم نكن نسمع بها قبل اليوم ! !

– ولكن ماذا أرى ؟؟ هل يعقل أن تدعى الأمة كلها إلى حرب غير متكافئة ؟؟

والله ماسمعنا بأمة من الأمم ، تدعو كل أبنائها لخوض حرب لايدري غير الله نتائجها !! وماسمعنا بأمة من الأمم تدعو أبناءها جميعاً لخوض غمار حرب غير مضمونة النتائج !! وماسمعنا بأمة من الأمم تستخدم طاقاتها المادية كافة ، بل تستنفر كل مالدى أبنائها من إمكانات مالية وعتادية ، لتزج بها جميعها في هذه الحرب ؛ لتكون كل هذه الإمكانات في خطر الوقوع غنيمة بين يدي أعدائها !!!

وما سمعنا بأمة من الأمم تستنزف خيرة شبابها وعقلائها ومفكريها ، لترمي بهم في معركة واحدة !!

– لكأني برسول الله ﷺ يجعل من هذه المعركة معركة حياة أو موت ... معركة إثبات وجود في وجه قوة غاشمة طاغية ماوقفت عند حدود الحق ، فقذف بالأمة كلها الى ساح الوغى ، في نمط حربي جديد ، لاعلم لنا بمثله قط ... فلم أر أحداً من المسلمين بعيداً عن المعركة غيري أنا أيها المتخلف ...

هنيئاً لكم أيها المسلمون ! يا من استُنفرتم فنفرتم جميعاً في حربكم هذه لإعلاء كلمة الحق ، وإزهاق الباطل « إن الباطل كان زهوقاً »[١] .

ـ هنيئاً لكم لقد استجبتم لأمر ربكم :

« انفروا خفافاً وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »[٢] .

وتعساً لي ـ أنا المتثاقل عن نصرة رسول الله ـ وما جزاء ذلك الا عذاب أليم !!

قال تعالى :

« ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؛ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ؛ ويستبدل قوماً غيركم ؛ ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير . »[٣]

* * *

(١) « سورة الأسرى » الآية : ـ ٨١ ـ .

(٢) « سورة التوبة » : الآية ـ ٤١ ـ .

(٣) سورة التوبة » : الآية ـ ٣٨ و ٣٩ ـ .

وأقمت وحيداً في بستاني ، أعتزل الناس ، فلا أكاد أغادره حتى أعود مسرعاً إلى عزلتي هذه ... وكيف يطيب لي المقام بين الناس ، وقد خلت المدينة من المؤمنين ، فلا أكاد أجد فيها إلا النساء والنزر اليسير من الرجال ، مابين منافق ومعذور ؟؟ !

كنت إذا ما طفت بين الناس أجد نفسي غريباً عنهم جميعاً ... فهل أرضى أن أُعَدَّ بين النساء بعد أن لم أقبل لنفسي عذراً في التخلف عن رسول الله ؟ أم هل تراني أحشر شخصي بين المنافقين ؟ !

إني والله لأربأ بنفسي عن هؤلاء وهؤلاء جميعاً ...

ولذلك آثرت أن أعود إلى عزلتي في بستاني .

ولكن شيئاً ما كان يجعلني أكره هذه العزلة أيضاً ... اني أشعر أن أهلي وبستاني هذا ، سبب فيما اقترفت يداي من إثم في التخلف عن رسول الله ... فلا أكاد أدخل بستاني أو أرى زوجتي الا ويتملكني ضيق وسأم شديدان !!

ولكن الى أَين أَفر ؟!

لابد لي من أن أتحمل أهون الشرين ؛ وأَن أقبل أن أكون رهين محبسي هذا الذي اخترته لنفسي ...

لم تبق نظرتي الى عناقيد التمر والرطب كما كانت من ذي قبل ؛ بل انني أستطيع أن أُؤكد ان هذه العناقيد المتدلية هي – في نظري اليوم – أشبه شيء بكلاليب جهنم تريد أن تخطفني !!

وعدت لا أنظر إلى زوجتي ، كما كنت أنظر قبلاً ؛ فإني لا أكاد أقترب منها ، بل لايكاد يقع نظري عليها ، حتى أشعر بخزي شديد يغمرني فأرى أني لم أزد على أن أكون امرأة تمتع ناظريها بمرآة أمامها ، وتتيه على غيرها من النساء بأساورها وخلاخلها ! ! بل إن كثيراً من النساء سبقنني إلى ساح الجهاد ! !

وبلغ بي التذمر غايته حتى كدت امزق جلدي ... ورحت – على غير شعور مني – أردد :

– تباً لي ! ! ماذا فعلت بنفسي ؟ ماذا فعلت بنفسي ؟

وحاولت أن أفر من أحب السجنين الي ؛ لألحق برسول الله ﷺ ... لولا أَني رأيت أَن الوقت قد فات ، وأنه لم يعد ينفع استدراك ...

لقد عاد رسول الله ﷺ ، وأصبح على بعد ليـال من المدينة .

ووصلت الأخبار أن « يوحنا » صاحب (أيله)[1] ، قدم إلى رسول الله وقدّم له الهدايا والطـــاعة ، وصالحه على الجزية[2] ، بعد إذ فرت جموع الروم موغلة في بلاد الشام ...

كما حضر أهل (جرباء) و (أذرح)[3] وأعطوا الجزية[2] ...

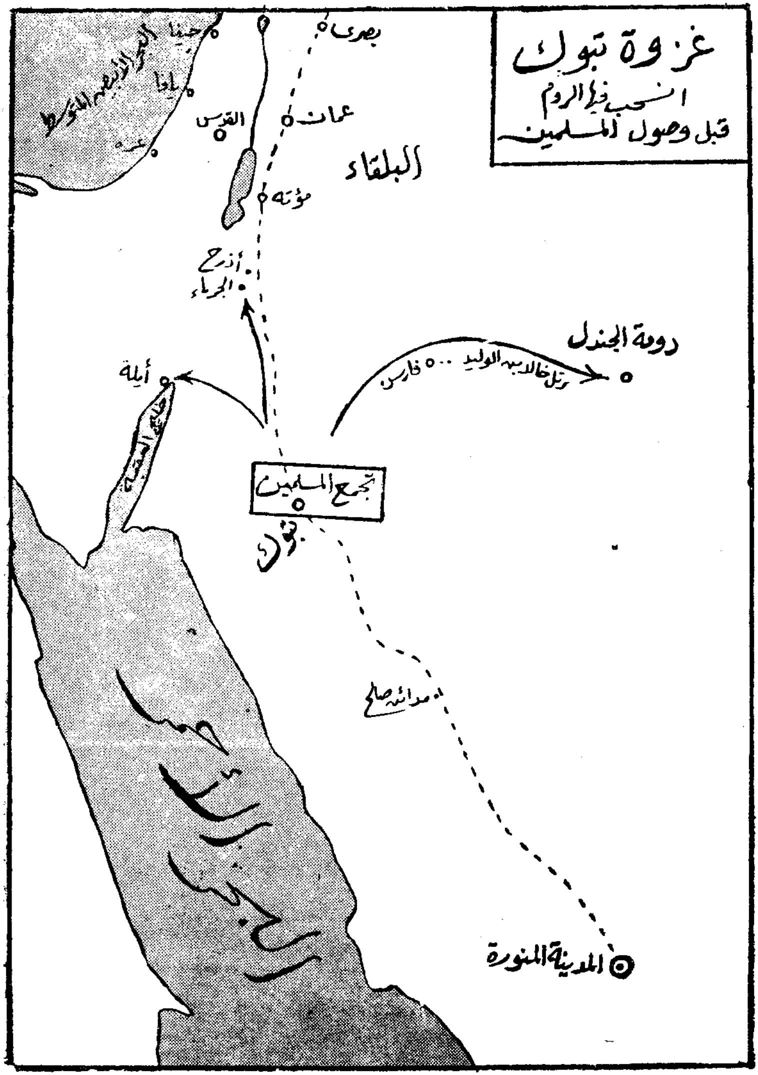
وكتب رسول الله ﷺ كتباً ذاع صيتها في الآفاق ..

وما أجمل كتاب السلام الذي كتبه رسول الله ﷺ ليوحنا ـ أمير أيلة ـ !!

وما اسمى ذلك العهد الذي قطعه رسول الله ﷺ على نفسه ؛ في نشر الأمان ، وإهدار دم المفسدين !! ذلك العهد الذي ذاع صيته في الآفاق.. ولا يزال يحلو لي أن أشنف اذني بسماع عباراته التي تعَدُّ فتحاً جديداً في تاريخ الانسانية والعلاقات العامة ...

(بسم الله الرحمن الرحيم ... هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسـول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيله ، سـفنهم وسياراتهم ، في البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشـام وأهل اليمن وأهل البحر ؛ فمن أحدث منهم حدثاً ، فانه لا يحول ماله دون نفسـه ، وإنه

(١) أيله : بلدة على خليج العقبة .
(٢) « تهذيب سيرة ابن هشام » ج ٢ ص ١٠٣ .
(٣) جرباء وأذرح : قريتان في منطقة عمان بالبلقاء من أرض الشام .



غزوة تبوك
انسحب جيش الروم
قبل وصول المسلمين
بصرى
عمان
القدس
البلقاء
مؤته
أذرح
الجرباء
أيلة
دومة الجندل
رتل خالد ابن الوليد ٥٠٠ فارس
تجمع المسلمين
تبوك
مدائن صالح
المدينة المنورة
حيفا
يافا

طيب لمحمد أخذه من الناس ... وإنه لا يحل أن يُمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر)[1] .

ـ ما أروع ذلك النصر المؤزر الذي حققه « خالد بن الوليد » على « الأكيدر » ملك دومة الجندل ! لقد تدخلت يد القدرة الإلهية ، وسخرت البقر الوحشي لتكفي كوكبة « خالد » مؤونة الحرب ، وتستدرج « الأكيدر » إلى حتفه وبئس المصير !

أين أنت يا « أبا قيس » لتسمع هذه الأخبار ؟؟

أين أنت يا « ابن أبي » مما تلهج به الركبان كل يوم ؟؟

ألا ليتكما كنتما ههنا .... إذاً لشفيت غيظ نفسي بأن أروي لكما ماسمعته بالأمس ...

لقد بعث رسول الله ﷺ « خالد بن الوليد » على رأس كوكبة من الفرسان « إلى الأكيدر بن عبد الملك » ، ملك دومة الجندل[2] ، وأخبره بما سيكون بقوله :

ـ (إنك ستجده يصيد البقر)[3] .

(١) « تهذيب سيرة ابن هشام » جـ ٢ ص ١٠٣ .

(٢) دومة الجندل : بلدة تقع شمال شرقي تبوك .

(٣) « تهذيب سيرة ابن هشام » جـ ٢ ص ١٠٤ .

فخرج « خالد » إليه ، يخب من ورائه الفرسان ، في ليلة مقمرة صائفة ...

وكان « الأكيدر » إذ ذاك على سطح داره – ضمن الحصن – يقضي ليلته مع امرأته ، يستمتعان بخيوط القمر الفضية التي يرسلها على رمال الصحراء ، فتتلألأ ذراتها في الآفاق البعيدة هنا وهناك ...

وسخر الله جنوداً من البقر الوحشي لتُخرج « الأكيدر » من حصنه ، فتكفي كوكبة « خالد » مؤونة القتال والحصار ، فإذا بها تحوم حول الحصن وتحك بقرونها باب القصر ، و « الأكيدر » وزوجه على السطح يريان ويسمعان ...

فالتفتت امرأة « الأكيدر » إلى زوجها تقول :

– هل رأيت مثل هذا قط ؟

– لا والله .

– فمن يترك هذه على مثل هذه الحال ؟

– لا أحد والله ...

ثم أمر « الأكيدر » بفرسه فأسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له اسمه « حسان » ... وخرج

الركب من الحصن برماح قصيرة تصلح لمطاردة الوحوش ... وساقتهم بقر الوحش إلى الطريق التي دلفت منها كوكبة «خالد» فإذا هم يقعون أسرى بين يدي المسلمين ، بعد أن قُتل «حسان» أخو « الأكيدر » ... فأخذ « خالد » سلبه - وكان عليه يومها ثوب من الحرير الخالص منسوج مع خيوط من الذهب - فبعث به إلى رسول الله ﷺ ، قبل قدومه عليه ... فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه ... فقال رسول الله ﷺ : (أتعجبون من هذا ، فوالذي نفسي بيده ، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا) [١] .

هنيئاً لك يا « سعد » لقد فزت برضوان الله تعالى ...

هنيئاً لك ، ومثلك فليكن الرجال ، وإلا فلا ...

أو لم يقل عنك النبي الكريم (والذي نفسي بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد ، واهتز له العرش) فرحاً بقدومه [٢] .

---

(١) « تهذيب سيرة ابن هشام » ج ٢ ص ١٠٤ . و « تاريخ الطبري » ج ٣ ص ١٠٩ .

(٢) قال النووي : اهتزاز العرش هو فرح الملائكة بقدوم روحه .

هنيئاً لك يا « سعد » فلقد حفت الملائكة بك يوم وفاتك . . وكأنما قد نزلت إلى الأرض لترافق زفافك إلى أهل السماء ، كما تزف العروس ليلة عرسها إلى بيت الزوجية .

هنيئاً لك ! فإنك قد وفيت صحبتك لرسول الله حقها . . ولكأني بك يوم غزوة بني قريظه ، يؤتى بك لتلفظ حكمك العدل ، الحكم الذي نزلت به السماء ، على أولئك النفر من يهود بني قريظه ، الذين خانوا عهودهم ومواثيقهم ، وانحازوا إلى صف المشركين يوم غزوة الخندق ، معرّضين ظهر المسلمين لخطر شديد ، في أحلك الظروف وأشد الحالات ...

لقد حكمت عليهم بما يرضاه إيمانك وتقره السماء ، عندما هب نفر من قومك الأوس ، يطالبون النبي ﷺ أن يرأف ببني « قريظة » ، كما ترأف « ببني النضير » أحلاف الخزرج، عندما توسط لهم في ذلك حليفهم وزعيم الخزرج آنذاك ، « عبد الله بن أبي بن سلول » ... ولم تأخذك حمية الجاهلية في الانتصار لأحلافك الجاهليين ،ولم تأخذك الروح القبلية في أن تصنع عند أحلافك يداً كما صنع منافسك مع حلفائه « بني النضير » ...

بل إنك كنت عندما أصابك السهم في موقعة الخندق ،

إصابة مميتة ، ترجو الله أن يحقق لك أمنيتك الوحيدة ، وهي ألا يميتك حتى تقر عينك من « بني قريظة » الذين خانوا عهودهم ومواثيقهم .

هنيئاً لك ، فإنك لم تستجب لرغبة نفر من قومك في أن تحسن إلى حلفائك ، وقد حُملتَ على ظهر دابة إلى حصون « بني قريظه » لتقضي بالحكم بعد أن تقرر تحكيمك ...

ولكأني بك تقول عندما ألح عليك هؤلاء النفر المحيطون بك :

لقد آن « لسعد » ألا تأخذه في الله لومة لائم ...

ففهموا مرادك من القضاء عليهم ، فعادوا إلى دار « بني عبد الأشهل » ينعون لهم رجال « بني قريظة » قبل أن تصل إليهم ، وتنطق بحكمك الموافق لحكم السماء ... وماتكاد تنطق بحكمك حتى ينفجر جرحك ... فتموت منه شهيداً [1] .

هنيئاً لك يا « سعد » ليتني كنت معك ... إذن لاسترحت وأرحت !

---

(١) راجع « السيرة الحلبية » ج ٢ ص ٣٦١ .

وشعرتُ بمرارة هذه الحيـاة التي أحياها ، وأنا غير راض عن نفسي ...

فما وجدتني إلا وأنا أعبر عن فرط تأثري بقولي :

– ما أَتعس هذه الحياة التي أَحياها ! ووالله لو أن لي معها ملء الأرض ذهباً ، لما رضيت ... فكيف بي أَطمع بها ؛ وأستدرج نفسي إِليها من حيث أشعر أو لا أشعر !

ورأيت عظيم ذنبي الذي تراءى لي كجبل « أحد » يريد أن ينقض على صدري فيدقه دقاً ..

وشعرت بالخزي يملأ نفسي ويحيط بي من كل جانب.. من أمامي ومن ورائى وعن يميني وشمالي ... فالتفتُ الى نفسي أعنفها بقولي :

تباً لك يا كعب وتعساً ! !

لو أن لك جحـر ضب فاختبأت به لـكان أولى لك من هذا الوجه الملطخ بالسواد ، الذي ستقابل به رسـول الله ﷺ !

ورحت أعرض على نفسي الأمارة بالسوء ماجرى عنها من أحاديث فقلت :

- أولم تستمع إلى الركبان القادمين حين أخبروك بما كان من رسول الله حين سأل عنك يقول :

- (مافعل « كعب بن مالك » ؟؟)[1]

فقال رجل من « بنى سلمة » هازئاً بي ، ساخراً مني :

- حبسه يارسول الله برداه(أي ثوباه)والنظر في عطفيه !

غير أن أخاك الذي يظن بك خيراً « معاذ بن جبل » هب يوبخ الرجل بقوله :

- بئسما قلت !

ثم التفت إلى رسول الله ﷺ يقول:

- والله يارسول الله ، ماعلمنا عليه إلا خيراً[1]

وسكت « معاذ » هنيهة ، يُعمل فكره في عذر يلتمسه لي ... ولكن - ويا للأسف - لم يكن مني عمل يعينه في الدفاع عني !

وسكت رسول الله ﷺ ، لايدلي بحديث ، وكأنما لايريد أن يقطع فيّ برأي .

(١) « تفسير بن كثير » جزء ٢ ص ٣٩٧ .

وثارت عليّ نفسي ... وراح ضميري يؤنبني على سوء مافعلت ... بينما انصرف ذهني إلى التفكير في جواب أعدّه لرسول الله الذي لم يقطع فيّ برأي ؛ إذ لايزال هناك بارقة أمل تلمع في الأفق البعيد ...

وانهالت على ذهني أسئلة كثيرة ، ملأت ساحة شعوري ، بينما كنت غارقاً في بحار من الحيرة ...

ماذا ستقول لرسول الله غداً عندما يعود من غزاته ؟؟

لماذا لم تلحق برسول الله كما فعل « أبو خيثمة » ؟؟

أو ما سمعت أن « أبا ذر » عندما عثرت بـه راحلته ، وتباطأت به ، حتى ظن القوم أنه قد تخلف مع المنهزمين ... وحتى إذا أعياه معالجة بعيره ... تركه على الرمال ، وحمل متاعه على ظهره ، وراح في أثر الجيش ، يمشي على قدميه وحده ... وما كاد رسول الله ﷺ في أثناء استراحته في الطريق يرى ذاك القادم من بعيد ، حتى قال : « كن أبا ذر »[1] ودهش القوم بعد قليل ، عندما عرفوا أن ذاك الشخص ،

---

(١) « السيرة الحلبية » جزء ٣ صفحة ١٥٣ و « تاريخ الطبري » جزء ٣ صفحة ١٠٧ .

إنما هو « أبو ذر » نفسه ، لم يتخلف ولم ينهزم عن إخوانه ، بل هو يلحق بهم ماشياً على قدميه ، بعد إذ أعياه بعيره ، فأسرعوا الى رسول الله ﷺ ، قائلين : هو والله أبو ذر نفسه

عند ذلك وقف رسول الله ﷺ يقول لهم عبارته المشهورة :

- (رحم الله « أبا ذر » يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده) [١] .

ورحت أحاسب نفسي وأدقق الحساب ... كأنما كنت رجل مباحث يهمه أن يعرف دخائل الأمور وأبعد أغوار النفس ...

- لماذا لم تكن - يا كعب - مثل « أبي ذر » ؟؟ هل فضلت نفسك على نفس النبي ﷺ ؟؟

فيجيبني ضميري : لا والله ما كان هذا ... وما كان لي أن افضل الحيـــاة على شوكة يُشاك بها أسفل قدمه عليه أفضل الصلاة والسلام !

- إذن ، هل أصابك خور ؟

---

(١) « السيرة الحلبية » جزء٣ ص ١٥٣ و « تاريـخ الطبري » جزء ٣ صفحة ١٠٧ .

- لا والله ، ما كنت جباناً في يوم من الأيام !

- هل كنت ممن يفضل الحياة الدنيا ؟

- لا والله ما كنت هكذا ... ولكن لا أدري كيف بدر مني هذا ...

وإن الأمر - والله - لايعدو كونه مجرد تمهّل وتهاون في الاستجابة لأمر رسول الله ...ولكن صدق من قال : (ومعظم النار من مستصغر الشرر) .

لقد كنتُ استصغرت شأن التهاون في تنفيذ امر رسول الله ، فإذا بي اقع فيما لم يكن بالحسبان !

ولا أدري ... هل سيصدقني رسول الله ؟ أو إنه سيعدّني في المنافقين ؟؟ وحينئذ ... لن ينفعك - يا كعب - مال أو بنون !

- أو ما كان الأولى بك ؛ أن تكون من أولئك النفر السبعة من الفقراء ، الذين ماوجدوا ظهراً يمتطونه ليشاركوا رسول الله في غزاته ، ولولا بعد السفر ، لرحلوا إلى تبوك يمشون على أقدامهم ؛ فاتوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون أن

بحملهم ، بعد أن علموا أنه اعطى غيرهم مطية يمتطونها في الجهاد..
ولكنهم – لسوء حظهم – جاؤوا متأخرين بعد ان لم يبق لدى رسول الله مايحملهم عليه فقال لهم : (لا أجد ما أحملكم عليه)[١]
فألحوا في الطلب متوسلين لايتركون باباً من أبواب الرجـــاء إلا سلكوه ... ولكن ، وياخيبة أملهم ، لقـــد ألحفوا في الطلب أكثر مما ينبغي ، حتى شغلوا الرسول عن متابعة العمل في تهيئة الحملة التأديبية ضد العدو المتربص على الحدود، فاستاء من شدة إلحاحهم فأقسم ... يميناً ألا يحملهم ... فعادوا ، وقلوبهم تعتصر ألماً ، لفوات شرف الجهاد ؛ وعيونهم تخضلّ من الدمع ، حزناً على أن لايجدوا مايمتطونه للوصول إلى مكان المعركة ...
ولم يكد « عبد الله بن قيس » أحـد هؤلاء البكائين السبعة ، يسمع صوت « بلال » مؤذن الرسول ، يناديـــه حتى أسرع إليه يستعلم الخبر ... وما أسعده حين علم أن رسول الله يطلبه فطار إليه على جناح السرعة ... وما كاد يسمع رسول الله ﷺ ، يقول له : (خذ هذه الستة أبعرة ، فانطلق بها إلى أصحابك)[٢]

---

(١) « تهذيب سيرة ابن هشام » جزء ٢ صفحة ٩٨ .

(٢) « السيرة الحلبية » جزء ٣ صفحة ١٤٩ .

حتى اسرع يسوقها ... ولكن مالبث هو وصحبه أن عاودهم البكاء ، ندماً على ما أزعجوا رسول الله ، حين حملوه على أن يفعل خلاف ماحلف من يمين بالله ... فأتوا رسول الله ﷺ، فذكروا ندمهم هذا ، فقال لهم عليه أفضل الصلاة والسلام : (أنا ما حملتكم ، الله حملكم ... إني لا أحلف يميناً فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني ، وأتيت الذي هو خير)[1]

لقد بكى أولئك النفر المعذورون ، على أن لم يجدوا ظهراً يمتطونه ، وأتوا يتوسلون إلى رسول الله ﷺ كي يعينهم على المشاركة في الجهاد ! في حين أنك - يا كعب بن مالك - بقيت تتهاون ، حتى فات الأوان ، وليس لك شيء من العذر !

أو ترضى أن يسبقك الناس ؟؟

بماذا ستجيب رسول الله ، غداً عندما يعود من غزوته ؟؟

هل ستعتذر إليه زوراً وبهتاناً كما فعل المنافقون ؟؟

---

(١) « السيرة الحلبية » جزء ٣ صفحة ١٤٩ .

أو إنك ستصدقه الخبر ، وتـدله على مانجـم في نفسك من النفاق ...

ولم تكد كلمة النفاق تمس مسمعي حتى صحت وأنا لا أجد غير القسم دليلاً على صدق ما أقول :

- لا والله ... لم أكن منافقاً ؛ على الرغم من أنني غير راض عما سلف مني !!

ورحت أسائل نفسي :

- ولكن ما العمل ؟

إني لا أدري - والله - ماذا أفعل ...

ولا ماذا أقول ..

انني في حيرة من أمري !!

• • •

وعاد رسول الله ﷺ الى المدينة . . واهتزت « يـثرب » فرحاً بلقائه .. وأسرع المنافقـون إلى رسول الله ، ينتحلون الأعذار ، ورسول الله ﷺ ، أعلم بما في نفوسهم ، فيعفو عنهم.

ولئن عفا عنهم رسول الله ، فإن الله عز وجل قد اطلع على دخائل نفوسهم فلم يقبل ما ادعوه-زوراً من أعذار كثيرة ..

ولئن فرح هؤلاء المنافقون ، وضحكوا قليلاً في هذه الحياة الدنيا ، فإنهم سيبكون كثيراً ، غداً عندما تعرض أعمالهم على

الميزان ، يوم تسكت ألسنتهم ، لتنطق أبصارهم وجلودهم ، مصداق قول الله تعالى :

« ويوم يُحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزَعون ؛ حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأَبصارهم وجلودهم ، بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا، قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ؛ وهو خلقكم أول مرة ؛ وإِليه ترجعون » [1] .

أجل في ذلك اليوم سيبكون ، وسيندمون .. ولكن ... لات ساعة مندم . أو لم يعرّض بهم القرآن الكريم في قوله تعالى :

« فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ؛ وكرهوا أَن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ؛ وقالوا: لاتنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون » [2] .

ووقعتُ في غمرة من الصراع العنيف ... فأنا أمام أمرين أحلاهما مر ..

لقد ذهبت أقول :

---

(١) « سورة فصلت » : الآيات ٢٠ — ٢٢ .

(٢) « سورة التوبة » : الآية : ٨١ — ٨٢ .

ـ لن أرضى لنفسي أن أخادع الله ورسوله .

ـ إذن .. لابد لك من أن تعترف لرسول الله بتقصيرك ، وتتحمل العقوبة .

ـ ولكنني لاأريد أن أقف هذا الموقف المخزي من بين جميع المسلمين .

ـ إذن .. هل ترضى بأن تكذب على رسول الله ؟

ـ لا لن أتجرأ على الكذب أمام رسول الله .

ـ فماذا أنت فاعل ؟

ـ لعمري هذا هو السؤال الذي لازال يؤرقني فلا أجد له جواباً .. الأمر الذي جعلنى أدور في دائرة مفرغة ..

ومر علي يومان ، وأنا من أمري في حيرةماشهدت لها مثيلاً، لم أترك خلالها أهلا ولا صاحباً إلا واستشرتهم فيما أنا صانع من أمري ...

فلم أجد مايرتاح اليه قلبي .

أرقت الليل كله ، في تفكير جاد مضن . . لا أكاد أبرم أمراً حتى أنقضه ..

ولئن بدا لي ، لأول وهلة ، أني أستطيع بما أوتيت من لسَن وقوة حجة ، أن أجد ما يبرئني عند رسول الله ﷺ ؛ فإنني لم ألبث أن وجدت في أعماق نفسي سراً منيعاً، لا أدري ماهيته ، يحول بيني وبين أن أتجرأ على المراوغة ، واللف والدوران .

وما عتّمتُ أن وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام رسول الله ﷺ ، وقد قطب حاجبيه تعبيراً عن الغضب ثم قال :

- (تعال) ...

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ...

فقال لي :

- (ما خلّفك يا كعب ؟) [1] .

وكأنما يريد أن يقول لي : ما خلفك عن هذه الحرب الإجماعية ، التي استنفرت فيها جموع المسلمين قاطبة ؟ ألست واحداً من جماعة المسلمين ؟!

ثم تابع عليه الصلاة والسلام حديثه يقول :

---

(١) « تفسير ابن كثير » جـ ٢ ص ٣٩٧ .

- (ألم تكن قد اشتريت ظهراً) ؟ [1]

فقلت :

- بلى ...

وانهمرت من عيني دمعة سخينة حاولت أن أخفيها لأنني عرفت أنني أنا المذنب ، وينبغي علي أن أتحمل جريرة ما اقترفته يداي ...

ثم قلت :

يا رسول الله « إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، ولقد أُعطيت جدلاً ... ولكني والله ، لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخط علي فيه ... ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه (أي تغضب علي فيه) إني لأرجو فيه عفو الله » [2] .

ثم رحت أقولها صريحة ... لا رياء فيها ولا مغالطه :

« والله ما كان لي من عذر » [2] ...

---

(١) « تفسير ابن كثير » : جزء ٢ ص ٣٩٧ .

(٢) « السيرة الحلبية » ج ٣ ص ١٦٤ و « تفسير ابن كثير » ج ٢ ص ٣٩٧ .

« والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك » [1] .

وصمتُّ أنظر شفتي رسول الله تتحركان بقوله :

- (**أما هذا فقد صدق**) [2] .

ثم التفت ﷺ إلي وقال :

- (**فقم حتى يقضي الله فيك**) [2] .

فقمتُ أنسلّ من بين يدي رسول الله ، وقد شعرت براحة في الضمير ما بعدها راحة أبداً ... لقد أحسست بنور الإيمان يسري بالطمأنينة في أوصال جسدي ، يسري بها مسرى الدم ، فلا يترك جزءاً ، مهما كان يسيراً من جسدي ، إلا وقد أحس بالرضى والارتياح ، واستمتع بنشوة الظفر على النفس الأمارة بالسوء .

* * * *

ولم أكد أخرج من مجلس رسول الله ﷺ ، حتى ابتدرني رجال من « بني سلمة » ، يلومونني على ما اعترفت به أمام

---

(١) « تفسير ابن كثير » جـ ٢ ص ٣٩٧ .

(٢) « السيرة الحلبية » جـ ٣ ص ١٦٤ و « تفسير ابن كثير » جـ ٢ ص ٣٩٧

رسول الله ، ثم أخـــذوا يبينون لي أنـه كان يكفيني أن أستغفر الله [1] ، فيما بيني وبين نفسي ، فيغفر الله لي ... ودعموا رأيهم هذا بإيراد الآية الشريفة :

« واستغفر الله ، إن الله كان غفوراً رحيماً [2] » ...

ثم زادوا على ذلك بأن ذكروني بأنه لم يسبق لي أن أذنبت ذنباً قبل هذا ... ولذلك فإنه لا بأس علي أن أعتذر إلى رسول الله ﷺ ، بما اعتذر به غيري من المتخلفين !!

وما زالوا يلومونني ويؤنبونني ، ويزينون لي الاعتذار بغير الحقيقـة حتى هممت ان أرجـع فأكذب نفسي امام رسول الله .

وما إن رجعت إلى نفسي ، لأعطي قراري الأخير حتى رأيت أن حائلاً منيعاً ، يحول بيني وبين ما أردت !!

وعادت بي الذاكرة إلى قول رسول الله ﷺ :

(إن الشيطان يئس أن تعبد الأصنام في أرض العرب ،

---

(١) « الرسول القائد » : ص ٢٧٩ .

(٢) « سورة النساء » : الآية -١٠٦- .

ولكنه سيرضى منكم بدون ذلك بالمحقرات ، وهي الموبقات[1] يوم القيامة . إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه)[2] .

فقلت لنفسي : ويحك يا كعب ! أوترضى أن تعود في الكفر بعد الإيمان ، بهذه المعاصي والأكاذيب التي يزينها لك شياطين الإنس والجن ؟؟ أوما سمعت رسول الله ﷺ يقول : المعاصي بريد الكفر ؟؟

تجلد يا كعب ... ولتتحمل الخطوب بنفس راضية ... فإنك تطلب معالي الأمور ، ولا ترضى بسفسافها ...

أوما سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(حُفت النار بالشهوات . وحفت الجنة بالمكاره)[3] .

فلماذا تختار الطريق السهلة ، التي تنقذك من عقوبة بسيطة

---

(١) الموبقات : المهلكات .

(٢) رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي .

(٣)رواه البخاري ومسلم .

لتوقعك في غضب الله ومقته ، في نار جهنم والعياذ بالله من سوء المصير ؟؟!

كيف يتجرأ مثلك على أن يكذب بين يدي رسول الله ﷺ ؟

- حقاً إن قلبي لايرتاح للكذب بين يدي رسول الله !! ولكن ألا يعفو الله ويصفح عن التائبين ؟؟ إن الله تعالى يقول عن ذاته العلية :

« وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » [١] .

- يا ويح نفسي ! أوهكذا تقول ؟ أو نسيت أن تتمه هذه الآية الشريفة توضح حال أولئك الذين هم أهل للتوبة ، أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... أما الذين كفروا فلهم عذاب شديد !!

استمع إلى قول الله تعالى :

« ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من

---

(١) « سورة الشورى » الآية - ٢٥ - .

فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد »[1].

يا ويلتا ! هل ترضى ـ يا كعب ـ لشياطين الإنس والجن أن يوقعوا بك في غضب الله ؟؟ أو لم تدر أن مغفـــرة الله ورحمته موقوفة على من تاب وآمن وعمل صالحاً ؟؟ وإن شئت فاستمع إلى قول الله عز وجل :

« فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فعسى أن يكون من المفلحين »[2] .

ـ أعلم ذلك ... وإني مستعـد لأن أتوب وأومن وأعمل من الصالحات أضعافاً مضاعفة !!

ـ وذنبك هذا ؟ هل هو من الحقارة ما يكفّره قولك أستغفر الله العظيم ثلاث مرات ، أو ثلاثاً وثلاثين ، أو مئة أو ألف مرة ؟؟ إن طلب المغفرة من الله إنما يكون قبل كل شيء ، في الإذعان لأوامر الله ...

---

(١) « سورة الشورى » الآية ـ ٢٦ .

(٢) « سورة القصص » الآية ـ ٦٧ .

وهل يتسنى لك ذلك ، وأنت مزمع على الكذب بين يدي رسول الله ؛ فتضيف بذلك إلى ذنبك ذنباً جديداً ؟؟

ويح نفسي إن أنا سلكت هذا السبيل !

- إذن ... تتحمل ما سيكون من عقاب ... ويا له من عقاب ... ينزل من السماء فينتشر بين قبائل العرب ... وتكون الفضيحة والذل والعار .

- لا بأس في ذلك ... لأنه سيكون حتماً أهون من نار جهنم ... وهل لي من طاقة بتحمل نار الدنيا حتى أتحمل ناراً **« وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون »**[1] .

وأنى لي أن أغفل عن أهوال يوم القيامة التي أخبرنا عنها الصادق الأمين ، نقلاً عن رب العالمين :

« يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ؛ وتضع كل

---

(١) « سورة التحريم » : الآية -٦- .

ذات حمل حملها ؛ وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » (١) .

- أجل والله ، لن أعود عما اعترفت به أمام رسول الله ﷺ ، مهما كانت العقوبة ... وإني لأتحملها بسرور ؛ لأنها أخف الأمرين وقعاً على نفسي ... وهل أستطيع أن أفلت من محاسبة الضمير في كل يوم وليلة ، إن أنا كذبت على رسول الله ؟

بماذا سأجيب داعي الايمان ، إن ناداني كل يوم ، وكل ساعة ، وكل لحظة ، يا كعب .. يا كعب .. كيف تكذب على رسول الله ؟

والله ان عذاب النفس لأشد من عذاب الناس ، بالغاً ما بلغوا في القسوة !

وصحت أقول :

- دعوني أتقبل حكم الله ، وحكم رسول الله ، راضي النفس ، جزاء ما اقترفته يداي الآثمتان .

* * *

---

(١) « سورة الحج » : الآية - ٢ - .

وطفقت أسأل القوم : هل أنزل الله فيّ من عقاب ؟؟
فعلمت أن رسول الله ﷺ منتظر حكم السماء ..

وخفف ما في نفسي من مر الألم ، ما سمعت من أن رجلين صالحين قد شهدا بدراً – وهما « هلال بن أمية » « ومرارة بن الربيع » – ينتظران الحكم السماوي ذاته ، في مثل الذنب الذي وقعت فيه !

فقلت في نفسي : لك أسوة فيها ...

وانصرفت إلى شأني .. أنتظر حكم رسول الله وحكم السماء من فوق سبع سماوات ...

غير أني لم ألبث أن لحظت اجتناب الناس إياي ، ينتشر في القوم ، انتشار النار في الهشيم ، حتى صرت منبوذاً كالجمل الأجرب ، قد تغير الناس جميعاً من حولي ..

فعلمت أن حكم الله قد نزل ... وقضى بأن يعتزلني الناس فلا يكلموني أبداً ..

شأني في هذا شأن كل من المتخلفين الآخرين « هلال » و « مرارة » ...

فتقبلت ذلك الحكم السماوي ، بنفس راضية ، وعزيمة ثابتة ؛ وقلت في نفسي :

– هذا جزاء ما اقترفته يداك ... صدقت العرب حين قالت : (يداك أوكتا وفوك نفخ) [١] ...

ورحت أوبّخ نفسي فأخاطبها بقولي :

– ما أتعسك بين العشيرة ، يتحاماك الأهل كما يتحامون الجمل الأجرب !!

– وما أشقاك بين الناس ، ينبذونك كما تنبذ النواة من الفم !!

وبسخرية مرة خاطبت نفسي وأنا أقول :

– هذا جزاء ترددك وتباطئك ..

وسرعان ماوجدت الجواب صادراً من أعماقي ، فقلت :

– عسى أن يكون هذا العقاب مكفراً لغلطتي هذه ، ورادعاً لي كيلا أعود لمثلها أبداً ...

★ ★ ★

(١) مثل يقال في الذي يقع في جريرة عمله .

وصبرت . . .

واحتسبت الأجر عند الله أياماً . . .

ولكن . . . عيل صبري . . .

وما كنت - والله - ادري ان هذه العقوبة تفعل فعلها في النفس الانسانية كما فعلت ...

وايم الحق . إنها لأشد فعلاً في النفس من النار التي تصهر الحديد وتذيب الفولاذ !

ولكن ، لا بأس ، فإن نار هذه العقوبة لتصهر نفسي ، فتزيل مابها من خبث ، تماماً كما تفعل النار في المعادن ، تصهرها فتزيل ما بها من أوشاب !

ولكني - والله - احس اليوم أني في سجن لاطاقة لي به ... سجن كبير يملأ الدنيا اتساعاً .. بل وايم الحق إني لفي سجن اصغر مما يتصوره انسان ...

هذه هي الحقيقة ... وليقل عني من يسمعني أنني أتكلم بالمتناقضات ... فهذا هو حالي ... وهذا هو شعوري ... وهذا هو واقعي الذي لا يفارقني لحظة واحدة ...

وكيف يكون حال من وُضع في حفرة من الأرض .. لابل إن الحفرة ليستطيع الإنسان أن يتحرك بداخلها .. أما السجن الذي فرض علي ، فإنه كان اضيق من قبر في جوف الأرض ...

انه سجن صنع على قياس جسدي تماماً ، فلا يكاد يزيد عليه قليلا ، او ينقص فتيلا ...

إنه سجن ضمن جلدي الذي أنا حبيس فيه ، منذ وجدت على ظهر الأرض ...

ولكني ما أحسست بثقله يوماً كما أحسست به اليوم !
وما شعرت به يضيّق علي الخناق كما يضيقه علي اليوم !

إني في زنزانة رهيبة ، لا يستطيع الإنسان أن يجد منها خلاصاً ...

والذي يضاعف إزعاجي أنها زنزانة متحركة ، تتحرك بي حيث شئت ؛ متجولة ، تتجول بي في أي مكان أحببت ؛ مطواعة ، لاتخالفني في أمر من الأمور !

ولكنها مع ذلك محكمة ، لا تدع لي متنفساً .

وايم الحق لولا أنهـا كانت تخشى أن أفقد الحياة ؛ فأرتاح ، إن هي سدت علي أنفاسي ، لكمّت فمي ... ولكنهـا تركته لي حراً طليقاً ، لآخذ حاجتي من الهواء ، حتى أحافظ على رمق الحياة ، فلا أفر من بين براثنها !!

بل إنها إذ أطلقت لي فمي ، لم تسمح لي أن أتصرف به كيفما أشاء ، فأستخدمـه في الحديث والتكلم ، كما يحلو لي ... فوضعت على فمي رتاجاً سّحرياً ، لا يسمح لي إلا بما يبقي على بقية هذه الحياة الكريهة !!!

أما التحدث إلى الناس ، فلقد حاولت بادىء ذي بدء ، أن أتجاوز رتاج هـذه الزنزانة المتجولة ، وأتحدث إلى الناس ، هنا وهناك ؛ فوجدت أن من الأفضل لي أن أنقاد إلى هـذا الحكم الرهيب ، فلا أتكلم ولا أكلم أحداً ؛ ذلك أنني ما خاطبت إنساناً إلا وجدته أصم أبكم ، لا يعيرني انتباها !!

- لله أنتم ايها الناس ! لماذا تقسون علي بمثل هـذه القسوة المتناهيه ??

والله لم يبق لدي طاقة على تحمل الحياة داخل هـذا السجن الرهيب !!

* * *

وطفقت أبحث عن صاحبيّ اللذين يعانيان من العقوبة مثل ما أعاني : « هلال بن أمية » و « مرارة بن الربيـع » .

وربما قلت في نفسي : لعلي أجد لديهما ما يخفف من غلواء هـذه العقوبة في النفس ؛ فإنا جميعاً قد زاملت بيننا المصيبة ، ووحـــدت بيننا العقوبة ... فهلا اتحدنا واجتمعنا على تحديها والنجاة من آلامها المبرحة ؟؟

ووجدتني في منزل « هلال بن أميـة » ، وقد انتحى زاوية فيه ، فجلس يبكي بكاء مراً كالأطفال !!

إنه مثلي يعاني من أثر عقوبتين اثنتين : عقوبة السماء بابتعاد الناس ونفورهم منا ، وعقوبة النفس اللوامة على ما فرطت يداه من عمل لا يرضى عنه .

فاقتربت منه ... وهممت أن أحدثه بما جال في نفسي من رغبة في تحدي هذه العقوبة التي وحدت بيننا .

ولكن .. يالله !! وجدتني داخل زنزانتي هذه ، وقد أحكمت رتاجها على فمي ، فلم استطع ان أنبس ببنت شفة فيما أتيت من اجله !! ووقفت برهة ، حسيراً حزيناً كئيباً ...

ولم يكن حظي لدى « مرارة بن الربيع » بأفضل مما كان لي لدى « هلال بن أمية » .

فعدت أدراجي ، وقد ازددت حزناً على حزن ، وغماً على غم !!

عدت وقد أحكمت زنزانتي خناقها علي وأنا لا أستطيع أن أتنفس إلا بعسر شديد .

وطفقت أطوّف في البلاد ، هنا وهناك ، هائماً على وجهي ... ولكنني لا أزال أشعر - أينما ذهبت ، وحيثما حللت - بهذه الزنزانة الرهيبة ، التي أطبقت علي ، وسيطرت على جمع نفسي ... بل لكأني صرت أشعر ، أن نفسي أصبحت خارج هذه الزنزانة ، وتركتني وحيداً في هذا السجن الرهيب الغريب ...

لقد تنكرت لي نفسي ، فما هي بالنفس التي كانت لي منذ أمد يسير ...

وتنكرت لي الأرض ، فما هي بالأرض التي كنت عليها منذ حين !!

ولم أجد مكاناً ألجأ إليه إلا مسجد رسول الله ﷺ فأسرعت إليه ... لعلي أجد فيه ما يخفف المصاب !

* * *

كان رسول الله ﷺ في مجلسه بعد الصلاة ، فأتيت إليه ، وقلت : السلام عليكم ...

وجلست مكاني أرقب شفتي رسول الله ﷺ ، تختلفان قليلاً ، فيما يمكن أن يُتوقع أنه رد على التحية في سرّه ؛ فتنفرج أساريري قليلاً ...

غير أني لم ألبث أن وجدت ، انني غريب بين قوم كانوا الأهل والخلان ، قد تنكروا لي جميعاً ، حتى إن رسول الله ﷺ كان يعرض عني في حديثه ... فخشيت على نفسي ان اكون قد هلكت ، من حيث لا ادري .

وقمت اصلي ، وانا اختلس النظرات إلى رسول الله ...

ويا لعظيم فرحتي ! حين ادركت ان رسول الله ﷺ ، كان يُقبل علي بنظره ، دون وجهه ؛ فإذا ماالتفتُّ نحوه اعرض

عني [1] ... فعرفت اني لم اخرج من قلب رسول الله ، وان الأمر لا يعدو كونه عقوبة تطهر نفسي .

ما اقساها عقوبةً اصابت فؤادي فأدمته !!

ولكــــن بوركت جراح الفؤاد إذا كانت تطهيراً له من الفساد !!

إن توبتي لم تكن كافية على ما يبدو ... وإن ما تحملته من عقوبة لا تطيقها الجبال الشم الرواسي ، لم يكن شافياً !!

فماذا افعل ؟؟

أكاد أتميز من الغيظ ...

ولكم اتمنى ان أمزق إهابي لأنجو من هـذا السجن الصغير الكبير .. السجن الضيق المجال ، الواسع الأفق !!

لقد طالت بي الأيام ، وانا فريد وحيد في هذا السجن ، لا يعترف بي فيه إنسان ...

وكلما امتدت بي الأيام ازددت به ضيقاً وتبرماً ، حتى

---

(١) « تفسير ابن كثير » حـ ٢ ص ٣٩٨ .

إنني كرهت هذه الحياة وسئمتها ، وتمنيت الموت ! ولكن - ويا للأسف - لم يكن الحصول على الموت سهلاً في هذه الأيام !!

وامتدت يدي - على غير شعور مني - إلى صدري ، عند الثدي الأيسر ، أريد أن أستخرج من أعماقه شيئاً طالما ازعجني وأرّقني ، وطالما احسست فيه بضيق لم أشعر بمثله قط في حياتي ... ولكن يدي كانت عاجزة عن ان تصل اليه ، فتستله كما تُستل الشوكة من قدم الحافي ، فعادت الى مكانها خائبة ... وتركتني في سجني هذا ، أعاني ما اعاني ، دون ان تقدم لي اية مساعدة ، في اشد الظروف حلكة ، وفي امس الأوقات حاجة .

ورحت هنا وهناك ، أزرع الأرض جيئة وذهاباً ، وكأنما الأرض على رحبها ، عادت لاتتسع لي ...

ولا أدري ، هل أنا الذي عاد لايرضى أن يكون على ظهر هذه الدنيا ...

أو إنها هي التي تربأ أن يكون مثلي على ظهرها ، فهبت

تضايقني هذه المضايقة الغريبة من نوعها !!

– وماذا استطيع أن أفعل معها ؟

وأنى لي أن أنتقم منها ، وكل ما على وجه البسيطة قد تنكر لي ، ونبذني ؟؟

وهل أستطيع أن أفر منها إلا إليها ؟!

واستندت إلى جدار كان قريباً مـــني . . . وفي حالة من الاسترخاء ، تركت لخيالي العنان ليبحث عن سبيل للنجاة مما أنا فيه...

وكان أن وجدت الحل المناسب .. فذهبت أخاطب نفسي بقولي:

– والله إنك لن تجد السلوان إلا عند ابن عمك « أبي قتادة »... إنه أحب الناس اليك ، فاقصده في بستانه ؛ لعلك تخفف بذلك مافي نفسك من ضيق شديد ، وتنفس مافي صـدرك من كرب عظيم !!

وما إن وصلت إلى بستانه حتى أدركت أني لن أفلـح في إقناع ابن عمي في أن يفتح لي الباب ؛ فإنه رجل قد التزم بأمر رسول الله ﷺ ، تماماً كما التزم به غيره من المسلمين ؛ وإن كان في سره يتمنى لو يحدثني ليخفف مصابي .. ولا أعتقد أنـه

يقصر في الدعـــاء لي في ظهر الغيب ، متوسلاً إلى ربه أن يفرج عني .

ـ ولكن ماذا أفيد من شعوره هـذا ، مادام يقاطعني ، وينبذني ، شأنه في ذلك شأن سائر الناس ؟ . . **وهل هناك أشد فعلاً في النفس من تنكر ذوي القربى ، ومن يدّعون المحبة والوفاء ؟**

ـ لابأس .. سأمتحن محبتـه إياي ، ووفاءه لي ، عندمـا اضعه امام الأمر الواقع ، واجابهه بحبه وابن عمه « كعب » في بستانه ؛ فـماذا يكون موقفــه ؟ هل سيتنكر لي ؟ ما اظنه يفعل ذلك ...

● ● ●

اعتليت الجدار المسور لبستان ابن عمي « ابي قتادة »وقفزت فإذا أنا داخل السور .. فطفقت ابحث عن ابن عمي حتى وجدته.

سلمت عليه ، فوالله مارد علي السلام ...

فقلت :

ـ ياابا قتادة ، الا تعلم ان رد التحية فريضة واجبة ؟ فكيف لاترد علي السلام ؟

فلم يجبني - والله - .. وأشاح بوجهه عني ..

فأتيت قبالة وجهه وقلت :

- ياابن عم ! « انشدك الله هل تعلم اني احب اللهورسوله ؟ »[1]

فسكت ولم يحر جواباً .. واعرض بوجهه عني ..

فـكان ذلك اشد على نفسي من طعنة خنجر تصيب كبدي .

فتعرضت له ثالثة وتعلقت بثوبه مسترحماً وانا اقول :

- يا ابا قتادة .. يا احب الناس إلي بعد رسول الله .. تـكلم..

إني اناشدك الله ... هل تعلم اني احب الله ورسوله ؟

فأعرض عني ...

وبـكلمة مقتضبة ، لاتدع مجالاً لمتابعة حديث قال :

- « الله ورسوله اعلم »[2] !

ثم انصرف مولياً ظهره لي ...

---

(١) « السيرة الحلبية » : ج ٣ ص ١٦٥ و « تفسير ابن كثير » ج ٢ ص ٣٩٨ .

(٢) « السيرة الحلبية » ج ٣ ص ١٦٥ .

فتمنيت لو ان الأرض استجابت لرغبتي الملحة ، فضمتني الى جوفها !! ولكن أنى لهـا ان تفعل وقد تنكرت لي قالبـة ظهر المجن ؟! من أين لها ان تسدي الي مثل هـذا المعروف ؟! وشهد الله لو اني كنت بداخلهـا أثوي في قبري للفظتني بعيداً عنها !!

وفاضت عبرة حارة من عيني ، كأنمـا هي تحمل جميـع ما في نفسي من نيران متأججة ، لتحرق كل ما تقع عليه ...

ولكني كفكفت دمعي حـذار ان تشمت بي اشجـار النخيل الباسقة ، التي كانت ترنو إلي وتذكرني بما كنت استمتع به من ظـل ظليل وماء بارد ، يوم ان كان رسول الله ﷺ وصحابتـه ، يسيرون في شدة الحر ، لا يجـــد الواحد منهم شربة ماء !!

ليس لي إلا ان أتجلد وأصبر ...

ولكن قدمي لم تبقيا قادرتين على حمل هـذا الجسد الذي صار منهالكاً ، قد فعلت فيه الهموم فعلها ، وأثرت فيه الأحزان ايما تأثير ؛ فأحالته هيكلاً عظمياً مغطى بإهاب صفيق !!

وتوجهت نحو الباب بخطى وئيدة ، تدل على ثقل الهموم وشدة الأحزان التي ينوء بها منكبي .

غير اني ادركت ان الباب مغلق .

فلم أناد ابن عمي ليفتح لي الباب ... بل تسورت ثانية جدار البستان وقفزت إلى الطريق .

وعدت من حيث أتيت ، محزون الفؤاد ، كسير الخاطر بعد إذ تنكر لي الأحباب في اشد الساعات عسرة .

وقادتني قدماي إلى السوق ، وانا في حالة من الذهول غريبة ...

عيناي تبصران ولكن لا تدركان ...

الدنيا مقفرة على الرغم من أنها تعج بالناس ...

كل شيء كئيب حزين محزن، على الرغم من الابتسامات التي تعلو الأفواه ..

الكون متشح بالسواد على الرغم من أن نور الشمس يملأ الأرض ..

ووالله ما كرهت الحياة كرهي لها في هذا اليوم !

وبينـا أنا كذلك في سـوق المدينة ، إذا أنا بنبطي من أنباط الشام — ممن يقدمون بطعام يبيعونه في المدينة — يقول :

— من يدلني على « كعب » ؟

فطفق الناس يشيرون له إلي ، وهم ينظرون إليّ بطرف أعينهم ، حتى جاءني ، فأخرج من ثوبه كتاباً دفعه إلي

وياللشـد ما كانت دهشتي عظيمة ، حين رأيت أنه كتاب من ملك غسان ... من بلاد الشام !

فقلت في نفسي :

— كتاب من ملك غسان ! مالي ولملك غسان حتى يرسل إلي كتاباً ؟ لابد أن الرسول قد أخطأ !

فصحت به قبل أن يبتعد ، وسألته عن الشخص الذي كلف أن يسلمه إليه .

فقال : أنت ..

قلت : أنا ؟

قال : نعم أنت !

وتابع حديثه يقول : أولست « كعب بن مالك » أخا بني سـلمة ؟ !

وباستغراب كبير قلت : بلى !

قال : هذا كتاب من ملك غسان ، موجه إليك ، افتحه واقرأ مافيه ، فلا داعي لهذا الاستغراب !

ففضضت الكتاب أقرؤه ...

وياليتني ماقرأته !

بل ياليت عيني فقئت قبل أن يقع بصرها على هذا الكتاب !

– إنه لم يبق من يطمع فيّ إلا ملك غسان ؟

أوبلغ بك النفاق يا « كعب » حداً جعل أخا حارثة الغساني يطمع فيك فيرسل إليك كتاباً يقول فيه :

« أما بعد ، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وأن الله لم يجعلك في دارِ هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك »[1]

– يالله ! أمايكفيني من البلاء ماحل بي حتى أتيت أنت – يا ملك غسان – تنكأ جروح قلبي لتقتلني ؟ أم تراك – يا أخا حارثة – وجدت أن الفرصة مواتية لتصطاد في الماء

---

(١) «السيرة الحلبية» ج ٣ ص ١٦٥ . و « تفسير ابن كثير » : ج ٢ ص ٣٩٨ .

العكر ، فتجهز على إيماني بعد إذ أضعفه تخاذلي وتهاوني ؟ !

لا .. لن تفرح بها والله .. ولن ألجأ إلى الخيانة مادامت فيّ عين تطرف وقلب ينبض .. وإلا فأين آثار التربية الإيمانية الغالية التي يربينا عليها رسول الله إن هي لم تظهر في مثل هذا الموقف ؟

وهل أجرؤ على أن أخرج على أمر رسول الله ﷺ ؟ !

والله إن ضميري ليعذبني عذاباً أشد وقعاً في النفس مما يمكن لملك غسان أن يتصوره .. وأنى له ذلك وهو قد فقد كل ضمير وإحساس !

يقول : الحق بنا نواسك !

وهل يستطيع كلب حقير مثله أن يواسي قلبي المتيم بحب الله ورسوله ؟!

لا .. وألف مرة لا ... إن رسول الله غرس في قلوبنا نور الايمان ، فامتلأت بعشق الله ورسوله ؛ ولن يملأ قلبي بريق الذهب ولا رنين الفضة ولا نعومة الديباج ، مما يلوح به أخو غسان .

تعساً لك ! تعساً لك ونكساً !

واني لمثلك أن يواسي إنساناً سجيناً ، إذا استطاع أن يفر إليك فإن سجنه لن يفارقه... بل إنه سيصطحب معه زنزانته المتحولة...وإن حُجُبها لتزداد غلاظة ... وإن رتاجها السحري ليزداد إيصاداً ...

ولن تستطيع قوة في الأرض أن تفك الرتاج عن هذه الزنزانة ،وتخرج السجين من سجنه إلا يد القدرة الالهية التي أودعته فيه.

تباً لك يا أخا الحارث !

من الذي قال لك إني في دار هوان ومضيعة ؟!

لا هوان ولا ذلال الا هوان الشرك وذل الكفر ...

لا مضيعة ولا خسران إلا مضيعة الحرمان من جوهر الايمان ، وخسران النور الالهي الذي يستقر في أعماق قلوب المؤمنين الذاكرين ...

ولكن ، أنى لك أن تفقه هذا ، وقد ختم الله على قلبك ،وطمس على عينيك فحالت ، الغشاوة بينك وبين نور الحق!

أي عدو الله .. والله إن جفوة « محمد » وأصحابه لي لأحب

إلي من قربك وإكرامك ؛ فابغ غير هذا الرجل ...

والله إن شياطين الإنس والجن لأحقر من أن توقعني في شراك الكفر بعد إذ أنعم الله علي بالإيمان ، فتذوقت حلاوته بين يدي رسول الله !

والتفتُّ ذات اليمين ، فوجدت تنوراً ، فيه نار متقدة ، فألقيت كتاب الفتنة فيه ، وتطلعت إليه وهو يحترق ، وكأني أحرقه بنيران الحقد الملتهبة ، منطلقة من أعماق قلبي ... ويا ليتها وصلت إلى صاحب الكتاب ، إذن لأردته قتيلًا وما أبطأته .

★ ★ ★

وقررت أن أعود مسرعاً إلى منزلي ؛ فإني لم أبق راغباً في أن أرى أحداً ؛ حفاظاً على البقية الباقية في قلبي من الإيمان...

وقلت في نفسي :

ـ والله لأعتصمن بمنزلي فلا أخرج منه حتى يحدث الله أمراً .

ويممت شطر منزلي بخطى سريعة، أبغي فيه الأمان والاطمئنان..

★ ★ ★

وهناك ... في هذا المنزل الذي حبست فيه نفسي ، فلا أغادره أبداً ... أتاني رجل يطرق الباب ...

ولما علمت أنه يسأل عني كدت أطير من الفرح !

إنسان يسأل عني !

هناك إنسان يكلمني !

فأسرعت إليه ، متعثراً في خطاي من شدة الفرح !

ولما علمت أنه رسول رسول الله لم أدر ماذا أفعل ... فقد تملكتني الغبطة وغلب علي الفرح والحبور وخُيِّل الي انه سيخبرني ان رسول الله ﷺ قد عفا عني بعد اذ اقمت في سجني، ضمن هذه الزنزانة المتجولة ، أربعين ليلة ... اجل أربعين ليلة لو وزنت بأربعين الف سنة لرجحت عليها !!

ولكنها كانت صدمة كبرى ... طوحت بي فألقتني على الأرض ...

ذلك أني سمعت هذا الرجل الموفد من قبل رسول الله يقول :

« ان رسول الله ﷺ يأمرك ان تعتزل امرأتك » (١)

---

(١) « السيرة الحلبية » جـ ٣ ص ١٦٦ و « تفسير ابن كثير » جـ ٢ ص ٣٩٨

لقد أدركت من فوري أنه لم يبق لي من أعتمد عليه في هذا الوجود !

حتى زوجتي التي عشت معها دهراً من الزمان ينزل حكم الله بأن أعتزلها !

وصمتَ فمي ... لأجأر من أعماقي بالعتاب وأنا أقول :

– لمَ كل هذا يارب ؟!

لم تبق لدي القدرة على تحمل الحياة !!

لكم تمنيت الموت فلم أظفر بالموت ...

أربعون ليلة مضت وأنا في هذا السجن الرهيب ، والعقوبة الفريدة ... ثم لاتكون كافية ... فإذا بي تفرض علي عقوبة جديدة تضاف إلى سابقتها ؟!

والله إن الرجم لأخف وقعاً على النفس !

ومرغت خدي على التراب وأنا أجأر بالدعاء :

– رباه ... أليست توبتي كافية لتمنّ علي بالقبول ؟!

وهذه العقوبة التي أرزح تحت عبئها الثقيل ، أليست جديرة بتطهير هذه النفس الامارة بالسوء ؟!

وأنحيت باللائمة على نفسي الخطاءة وأنا أقول تباً لي .. لقد أغضبت ربي غضباً ما أظن أن هناك مايطهره سوى نار جهنم خالداً مخلداً !

رحماك ربي ... رحماك ... فإني أرى الدنيا – وكل شيء فيها – تدور من حولي !

وتمالكت نفسي بالاعتماد على باب داري ...

وصحوت من سكرتي هذه على صوت الرسول الموفد ، يستأذن بالانصراف ... فاستوقفته وسألته عما يعنيه رسول الله ﷺ من أمره إياي ... باعتزال زوجتي ، وقلت :

– أأطلقها ؟ أم ماذا أفعل ؟

فقال وهو ينصرف :

– « لا ... بل اعتزلها ، ولا تقربها[1] هكذا قال رسول الله ﷺ ...

ودخلت داري لأسبح في دوامة من التفكير ، لا تني عن الحركة ...

---

(١) « تفسير ابن كثير » ج ٢ صفحة ٣٩٨

أفكار صاخبة تدور في رأسي فلا أكاد أستبعد الواحدة حتى تأتي أخواتها مسرعات ، وكأنما قد أجمعن أمرهن ، على أن يلجن علي سجني هذا ، في منزلي هذا ، دون سابق استئذان ... بل لكأنما أقسمن يميناً أن يتسللن إلى زنزانتي هذه ، ليعذبنني عذاباً لاقبل لي بجزء يسير منه ، فكيف بي وقد انطلقن في مختلف أنواع الإيذاء ، في ظلام السجن ، وقد غاب الرقيب والحسيب ؟!!

لعنة الله عليك أيتها الأفكار اللعينة ... أقلعي عني واغربي من وجهي ؛ فإني أستعيذ بالله منك !!

« قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس » .

لابد لي إلا أن أنفذ كلام رسول الله ...

يا كعب ... يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك ... اعتزلها ولا تقربها ...

وصحت في غرفتي التي قبعت فيها وحيداً :

ـ يميناً علي أن أعتزلها ...

ونهضت في مكاني واقفاً وأنا أقول :

- ولكن ما الذي يضمن لي أن أتقيد باعتزالها ، فلا أقع في مخالفة أو معصية ؟؟

إنني لم أتخلص بعد من شرور وآثام مخالفتي الأولى ... فأنى لي أن آمن نفسي في اعتزالهـــا ، وأنا لا أزال في سن الشبـاب ؟؟

ولئن جاز لمثل زوجـة « هلال بن أميـة » أن تستأذن رسول الله ﷺ في البقاء عند زوجها الطاعن في السن ، لتعمل على خدمته ، فإنه لا يجوز لي مطلقاً أن أرضى باستبقائها ...

وهل هناك ما يضمن لي ألا تنتصر عليّ حدة النفس الشهوانية المتسلحة بسلاح الشباب ، وأنا ههنا حبيس هذا المنزل ؟؟

منذا الذي يتكفل لي بألا يسول لي الشيطان أمراً ،يكون سبباً في أن تزل بي القدم ، فأقع في الهلاك المحتم الذي شارفت على الوقوع فيه ؟

لا ... لا أستطيـع على ذلك صبراً ... فأخشى ما أخشاه أن أقـع في حبائل ذلك الوسواس اللعين ، ذلك الشيطان الذي يسري في الإنسان مسرى الدم ...

ولكأني بأصحاب رسول الله ﷺ ما كادوا يستمعون إلى

رسول الله يخبرهم بأن لكل إنسان شيطاناً ، حتى قالوا : وحتى أنت يا رسول الله ؟ فيجيبهم عليه أفضل الصلاة والسلام بقوله :

- (وإياي ... إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير)[1] .

فمن أين لي - أنا الإنسان الضعيف الإيمان - أن أنتصر على شيطاني ، وأجعله لا يأمرني إلا بخير ؟

وإذا كان ذلك لم يتأتّ لأحد سوى رسول الله ﷺ ، فأنى لي - أنا الضعيف الخطاء - أن أجابه الشيطان ، الذي يستعين علي بفورة الشباب ، في هذا المعتزل البعيد عن الناس ؟!

والله لكأني بنفسي تعجز عن هذا الأمر ...

ولكن هل أحوم حول الشهوات ، وأترك نفسي قريبة من المعاصي ، وأنسى قول رسول الله ﷺ : (من

---

(١) روى الإمام أحمد ومسلم عن ابن مسعود (ر) أن النبي (ص) قال : (ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة) . قالوا : وإياك ؟ قال : (وإياي ... إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير) .

حام حول الحمى يوشك أن يقـع فيه ، ألا إن حمى الله محارمه) [1] ؟؟

ـ إذن فابتعـد يا كعب عن الحمى والمحـارم ... وانبذ امرأتك إلى أن يقضي الله فيك أمراً كان مقدوراً .

هنا وجدتني أصيـح منادياً زوجي ، التي أسرعت إلي تستغرب هذه الحدة في الصوت والعجلة في النداء ، وقالت :

ـ هون عليك يا « كعب » ! لقد كدت تقتل نفسك أسى وحسرة !!

هون عليك ، فإني ههنـا إلى جانبك ، وأنت لا تدعني أخفف ما بك من هم وغم ...

إن فرج الله قريب ... قريب جـداً ... هو من العبد المؤمن قاب قوسين أو أدنى !!

ـ كفّي يا هذهعن مثل هذه التعلات التي ليست في موطنها ... فوالله ما أراني ذاك المـؤمن ... وإن الأمـور لتنبىء بشر مستطير ... وإني لأرجو من الله أن يعينني على تحمل هذا البلاء

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير .

- ماذا دهاك يا « كعب » ؟

- لا شيء ... ولكن ... الحقي ... بأ ... هلك ...

كلمة قلتها (الحقي بأهلك) ... تحشرج بها الصوت ، ونفرت معها الدموع سخينة ... فكان لها وقع الصاعقه على نفس هذه المسكينة ، ذلك أنها أخطأت فهمها فقالت :

- ألحق بأهلي ... بأهلي ... يا ... أبا ... أولادي ؟! ماذا دهاك يا رجل ؟

وأجهشت بالبكاء تقول :

-أو تطلقني لغير ذنب ؟! لكأني بك وقد أصابك مسّ من الجنون !!

-لا ... ليس بي ذلك يا أمة الله ....

وإني لم أطلقك ... ولكن ... كوني عند أهلك حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء .

وبعد لحظة من الصمت كفكفت خلالها دموعي ، وتجلدت فيها للمصاب ... تابعت كلامي أقول :

ـ لقـد أمرنا رسول الله ﷺ أن نعـتزل نساءنا وإني لأخشى على نفسي وعليك إن بقيت هنـــا ... أنظر إليك وتنظرين إلي ... ولذلك لا بأس أن تذهبي إلى أهلك ... حتى ينزل بنا قضاء الله .

* * *

وجمعت المرأة بعضاً من متاعهـــا ... وخرجت من منزلي . . تودعني بنظرات ملؤهـا الحنو والحنـــان ، مشوبة بالأسى والوجد على ما سيؤول إليه حالي ، أنا المسكين ، بل أنا المذنب !!

وكأني بهـا تمشي مشية المتثاقل الذي لا يملك مما أُكره عليه شيئاً !!

وصاح القلب دون أن ينطق اللسان :

ـ رافقتك السلامة يا أم البنين ... وإلى لقاء قريب بعد أن يخلق الله لهذا الأمر فرجاً ، ويوجد لهذا العسر يسراً .

وأغلقت الباب وراءها ، ليسدل علي حجـاب كثيف من الظلام ، يحيط بي من كل جانب ، فاذا بي أفقد ما كنت

عليه من تجلد وصبر ، بل ما كنت أتظاهر به من رجولة صارمة ... واذا بي خائر القوى ، عاجز عن كل شيء حتى عن التفكير ...

وخلت ساحة شعوري من كل شيء ، إلا من صور ورؤى كانت تتحرك في مخيلتي سريعـة ، وكأنما هي صور منتزعة من حياتي ، تعرض أمام ناظري بسرعة مذهلة .

ولم أجد أمامي إلا أن ألجأ إلى ربي ، أدعوه آناء الليل وأطراف النهـار .. أتضرع إليه أن يغفر لي ذنبي .. أتوسل إليه أن يعفو عن تقصيري ، فإنه لايغفر الذنوب إلا هو .. ومنذا الذي يعفو عن المقصرين إلا هو ؟ ! إنه رب العـالمين .. إنه ربي ولا رب لي سواه .

ورحت أسـبح في مناجاة إلهية ربانية ، متضرعاً تارة ؛ شاكراً أخرى ؛ متوسلاً مرة ، حامداً حيناً .. ليس لي ملجأ إلا الله بعد إذ ضاقت بي الأرض على رحبها وسـعتها ، بل ضاقت بي النفس ، فكدت أخرج على نفسي .

• • •

وانقضت عشر ليال أخرى ، حتى بلغ سجني تمام خمسين ليلة ، حين كنت على سطح داري ... أقضي الليـل كله ، بين عبادة وصلاة ومناجاة ودعاء واستغفار .. حتى أسفر الصبـح .. وصليت ركعتين .. وإذا بي أسمع صوت صارخ من أعلى جبل « سلع » يقول بأعلى صوته :

ـ أبشر يا « كعب بن مالك » ..أبشر !

فتملكتني الفرحة ، فخررت سـاجداً لله .. وعرفت أن قد جاء الفرج من عند الله عز وجل بقبول التوبة ..

ووقفت أتطلع جهة جبـــل « سلع »... أنتظر الصوت ، صوت البشير ، فإني بشوق ولهفة لمعرفة حقيقة الخبر ..

ولكن الصوت انقطع حينـــاً من الزمن ، فانقطعت معه أنفاسي .. واضطربتُ أيما اضطراب ..

ثم لم ألبث أن سمعت صوت فرس تخب خبـاً سريعاً ، وتقف على باب داري ..

وإذا فارس من (أسـلم) ينزل عنها ، وقد علا لهاثها حتى إنه ليُسمع عن بعد لشدة ما كان فارسها يغذّ بها السير .

وما كادت قدم الفارس تطأ الأرض حتى صاح :

- أبشر يا « كعب بن مالك » !

فكدت أقذف بنفسي عليه ، لما استبد بي من الفرح .. وقفزت راكضاً نحوه ، فعانقني وقال :

- أَبشر يا كعب ، فلقد آذننا رسول الله ﷺ بتوبة الله عليك ، أنت وأخويك « هلال بن أميـة » و « مرارة ابن الربيـع » !!

بشراك يا كعب .. بشراك ..

فخلعت ردائي ، فقذفت به إليه أقول :

- خذ هذا .. بشّرك الله بالجنة .

والتفتُّ حولي ، لعلي أجد ما أمنحه إياه بعد الرداء فلم أجد شيئاً .. فاستعرت منه ثوبيه ، فلبستهما .. ثم خلعت له إزاري وقذفت به إليه قائلاً :

- وهذا لك أيضاً يا بشير الخير .. فو الله إني اليـوم لا أملك غيرهما .. ولو ملكت الدنيا لجدت بها فرحاً بهذه البشرى .

ثم انطلقت مسرعاً أقصد رسول الله ﷺ وكأني أريد أن ألتهم الأرض التهاماً ، أو أطير مع السحاب ، لأصل إلى رسول الله ﷺ .

وفي الطريق كان الناس يتلقونني أفواجاً أفواجاً ... كل منهم يقول :

– ليهنك توبة الله عليك .

* * *

لقد ولدت من جديد ..

لقد عاد الناس لي أصحاباً .

وأظهر المحبون فرحتهم ، بعد اذ تاب الله علي ..

واذا أنا أجد الدنيا كلها تضحك لي .. حتى الأرض.. حتى الأحجار ... حتى الأشجار في الطريق .. كانت كلها تبتسم لي بملء شدقيها ، وتهنئني بلسان الحال .. بعد اذ عجز لسان القال .

لقد فزت فوزاً كبيراً ... وها أنذا أسعد الناس ... أركض مهرولاً .. بل أطير على جناح السرعة .. إلى رسول الله ﷺ .

● ● ●

دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس والناس حوله .. ونظر إليّ رسول الله ، فتهلل وجهه بشراً ... ووالله إنها لنظرة ما أحب أن يكون لي بها حمر النعم !

ونظر إليّ الناس الملتفون حول رسول الله ﷺ ... فتهللت وجوههم فرحاً بي ، وبتوبة الله علي .. وكأن كلّا منهم يريد أن يهب ليعانقني من شدة الفرح .. ولكن هيبة مجلس رسول الله ﷺ منعت أجسادهم من أن تعانقني ، غير أنها لم تمنع أرواحهم من أن تهدي روحي أزكى تحية .. كما أنها لم تمنع نظراتهم من أن تكحل ناظري بأزكى سلام ؛ فسمحت لقلوبهم أن تعبر عن صادق فرحتها وعميم بهجتها بتوبة الله على أخ لهم في الإيمان .

وهاهو ذا — أخي المهاجري « طلحة بن عبيد الله » — تستخفه الفرحة من بين القوم ، فينسى هيبة المجلس ، ويهرول مسرعاً إلي فيصافحني ويهنئني [1] .

ثم اتجهت إلى رسول الله ﷺ ، فسلمت عليه ، وجلست بين يديه ... فإذا وجهه الكريم يبرق من السرور ، ويستنير حتى لكأنه قمر منير ..

---

(١) « تفسير ابن كثير » ج ٢ ص ٣٩٨ .

وانفرجت شفتاه الكريمتان عن اجمل عبارة سمعتها في حياتي :

(أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك[1])

فكاد الفرح يستخفني ويجعلني أقوم ببعض الحركات مما لايليق بمثلي في مجلس رسول الله ... إلا أنني استطعت بجهد كبير أن أتمالك نفسي وأضبط أعصابي... وسألت رسول الله ﷺ عن هذه البشري:

– (**أمن عندك يارسول الله أَم من عند الله**) ؟[1]

فقال : – ويالها من عبارة لا أجمل ولا أحلى – :

(**لا بل من عند الله**)[1] ...

لقد نزل الليلة جبريل الأمين بوحى السماء .. قال الله تعالى :

« .. وعلى الثلاثة الذين خُلفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ،ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم • يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »[2] .

---

(١) « تفسير ابن كثير » جـ ٢ ص ٣٩٨ .

(٢) « سورة التوبة » : الآية - ١١٨ - .

وماكاد رسول الله ﷺ ينهي تلاوة هذه الآية الشريفة حتى تملكتني الفرحة ، فلم أدر ما افعل ... والتفتّ يمنة ويسرة ، فإذا انا أرى الدنيا تزغرد في أذني ...

وإذا أنا أشعر ان بقايا تلك الزنزانة الفولاذيـة ، التي لازمتني خمسين يوماً ، تنزاح بعيداً عني ... لأشعر أنني قـد تحررت منها وعدت إنساناً سوياً ...

وإذا الستار الأسود ، الذي كان مخيمـاً على عيني ، ينجاب بعيداً ، فتضيء لي الدنيا ، بيضاء مشرقة مع الخيوط الأولى التي كانت ترسلها شمس اليوم الحادي والخمسين من الأيام السوداء في تاريخ حياتي .

★ ★ ★

ياللفرحة !! لقـد نزل قرآن يتلى بقبول توبتنا نحن المتخلفين الثلاثه ، هذه التوبة التي عُجنت بدموع أعيننا ،ومزجت بعصارة قلوبنا !!

وياللسرور والحبور !! لقد تحررنا نحن الثلاثة من هـذه الزنزانة التي احرقت جميـع مافي نفوسنا ، من أوشاب التعلق

بالدنيا ، وطهرتها من امراض النفس الأمارة بالسوء ، فجعلتنا نقف من كل المزالق موقف الحذر ، بل موقف من يبتعد عن الشر مسافة ميلين اثنين بدلاً من الميل الواحد !!

الا ما أجمل ان يتحرر الانسان من مثل هذه الزنزانة السوداء !!

ولكن هناك شيئاً ، مازال يتردد في مخيلتي ، وكأنه أثر من آثار تلك الزنزانه السوداء ، التي اطبقت علي خمسين يوماً ، فارتعدت أوصالي خوفاً من ان أُعاد إليها ..

ولم يكن ذلك الأثر المخيف الا بستاني وأموالي .

ولكأنها كانت تتراءى لي عن بعد وهي تقول :

– إنني أنا السبب فيما صرت إليه من غضب الله ..

إنني انا السبب فيما نابك من الزنزانة السوداء ..

انا التى حليت في نظرك التخلف عن رسول الله ..

انا دنياك التي ألهتك عن الله ..

انا دنياك التي شغلتك عن الاستجابة لأمر الله عز وجل ، ومنعتك من تلبية نداء رسول الله ﷺ .

انا الدنيا الشاغلة المُلهية .. فماذا أنت صانع بي ؟

هل ستنتقم مني حقـــاً ، أو تراك ستكون واحداً من أولئك الذين وقعوا صرعى حبي ؟

ولكني وجدت من الشجاعة النفسية ما جعلني التفت إلى رسول الله ﷺ قائلاً :

– إن من تمام توبتي ، ان أنخلع من مالي ، صدقة إلى الله وإلى رسوله ! [1]

قلتها كلمة تخرج من فمي ، وقد طابت بهـا نفسي ... وكأنما أموالي كلها قشة في مهب الريح ..

نطقت بتلك الكلمة ، وقـــد شعرت بأنني أتخلص من خطر عظـيم ، وقد أحدق بي طويلاً ، فلم يبق لدي رغبة في الدنيا ومفاتنها ..

قلت ذلك القول ، وانا مصر على التخلص من جميـــع اموالي ، على الرغم من أنه لاح في خاطري ماقاله النبي الكريم

---

(١) « السيرة الحلبية » : ج ٣ ص ١٦٦ و « تفسير ابن كثير » جزء ٢ صفحة ٣٩٨ .

« لسعد بن أبي وقاص » ذات مرة عندما أتاه وهو يريـــد أن يتبرع بثلثي أمواله في الوصية : يكفيك (الثلث ، والثلث كثير .. إنك إن تذر ورثتك أغنياء ، خيرٌ لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس)[١] .

قلت ذاك القول ، وفي ذاكرتي حديث رسول الله ﷺ : (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعـــالى من المؤمن الضعيف)[٢] .

غير أنه لم يبق لدي القدرة على أن أرى تلك الأموال التي كانت في يوم من الأيام ، سبباً في إيقاعي في غضب الله عز وجل ... وكأنما هذه الأموال قد انقلبت حية رقطاء ، قـد فغرت فاها هاجمة علي ...

قلت هذا ، لأفهم نفسي الأمارة بالسوء ، أنـــه لامجال

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : قلت يارسول الله : أنا ذو مال ولايرثني إلا ابنة لي واحدة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قـــال : لا . قلت : أفأتصدق بشطره ؟ قال : لا ، قلت : أفأتصدق بثلثه ؟ قال : الثلث والثلث كثير . إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس .

(٢) رواه أحمد ومسلم وابن ماجة عن أبي هريرة .

للمهادنة مع الشيطان بعد اليوم ... إنه العدو الأكبر ؛ فكيف لا أستجيب لأمر الله « إن الشيطان عدو لكم فاتخذوه عدواً »؟؟ كيف أسمح لنفسي أن تتقبل وساوسه ، لتنزلق بي القــدم إلى أول خطوة من خطوات جهنم من محقرات الذنوب ؟؟ ألم تستمع يا كعب إلى ما أخبرنا به المولى سبحانه عن الشيطان الرجيم « إنمـا يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » ؟؟

قلت هذا لأوصد الباب في وجه الشيطان الرجيم ، بالتخلص من أهم منافذه إلى النفس الانسانية ، ألا وهي الأموال .

ولكن رسول الله ﷺ منعني مما أريد ؛ لأن محك الإيمان الحقيقي إنما يكون مع وجود أسباب الفتنة ، وليس بالهروب منها ، وقال لي :

— (أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك)[1] .

فقلت :

فإني ممسك سهمي الذي بخيبر ... ولن أحتفظ بسواه... وخذ مابقي يا رسول الله ، طيبة بذلك نفسي ...

وايم الله ، لولا أنك أمرتني بأن أحتفظ ببعض مـالي ،

---

(١) « السيرة الحلبية » جزء ٣ ص ١٦٦ و « تفسير ابن كثير » ج ٢ ص ٣٩٨ .

ولولا أطفالي الصغار لما رضيت غير التصدق بجميع مالي .

وأطرقت قليلاً ... ثم نهضت برأسي أضيف إلى شرطي الأول ، وهو التخلي عن المــــال ، شرطاً آخر ، هو التزام الصدق فيما تبقى من حياتي مهما كلفني ذلك من مشقة ، فقلت :

ـ يارسول الله ... إنما نجاني الله بالصدق ... وإن من تمام توبتي ألا أحدث إلا صدقاً مابقيت .

★ ★ ★

ومضت الأيام ... وحافظت على وعدي وعهدي هذا ..

ووالله ما أعلم أحداً من المسلمين ، أبلاه الله من الصدق في الحديث ، منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، أحسن مما أبلاني الله تعالى ..

« ووالله ما أنعم الله علي من نعمة قط ، بعد أن هداني للاسلام ، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ »[1] .

ووالله ماتعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ ..

---

(١) « تفسير ابن كثير » : ج ٢ ص -٣٩٩- .

وإني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي من حياتي ..
لاخشية أن أعاد إلى زنزانتى السوداء ...

بل لأن نفسي قد برئت مما حل بها من مرض – والحمد لله – فسمت في مراحل الإيمـــان العليا ، وأصبحت لاترضى مطلقاً أن تتدنس بآثار المعاصي ، وظلمات الغفلة عن الله !!

فما أحلى هذه العقوبة الفريدة .. لأنها – على مابهـا من مرارة – دواء !!

وما أجمل هذه الزنزانة السوداء ... لأنها – على مابهـا من شقاء – شفاء !!

وما أبدع هذا السجن الكريه ... لأنه على - مافيه من قيود - الحرية بعينها !!

وما أروع هذا الدين السماوي الحنيف ؛ لأنـه يعمل على صقل النفوس الإنسانية قبل أن يشيد منها بناءه المتين الجميل !!

والسلام على من اتبـع الهدى

★ ★ ★

هل قرأت سلسلة (قصص من التاريخ) ؟

إنها سلسلة من القصص التاريخي ، تعمل على أن تنفض غبـــار النسيان ، عن تاريخنا المجيد ؛ ليكون ذاك التاريخ الناصع ، نقطة انطلاق إلى مستقبل مشرق ...

١ ـ الدين الحق : قصة تروي انتصار الإسلام الأعزل ، على التتار ذوي الجيوش الجرارة ... وذلك عندما قـــال بطل القصة « الشيخ جمال الدين » لطاغيه التتري :

« نعم ... قد يكون الكلب أغلى منا ثمناً ـ لو أننا لم ندن بالدين الحق » .

٢ ـ فأين الله !! : مجموعـــة من القصص القصيرة ، تروي :

★ صيحة « عبد الله بن عمر » في جوف الصحراء ...
★ اسلام الدكتور « كراين » الأمريكي الجنسية ...
★ إيثار الإمام « الواقدي » وإخوانه ...
★ الشيخ « عبد القادر » .. رجل العلم والتقوى ...

٣ ـ الإيمان والزنزانة المتجولة : قصة « كعب بن مالك » رضي الله تعالى عنه ... وهو يروي لنـــا الصراع العنيف ، الذي دار في نفسه ، وهو في سجنه الفريـــد من

هل قرأت للمؤلف ؟

النحلة تسبح الله : الكتاب الذي يأخذ بيدك في رحلة عجيبة داخل مملكة النحل ، ويضع يدك على ما فيها من ابداع واتقان ، ثم يتركك لتعود الى عقلك ليرشدك العقل الى الايمان بالله ·

سلسلة (قصص من التاريخ) :

١ ـ **الدين الحق** : قصة الشيخ جمال الدين السمرقندي الذي استطاع أن يدخل التتار في الاسلام على الرغم من جبروتهم ·

٢ ـ **فأين الله** : كتاب يروي قصة عبد الله بن عمر مع الراعي وقصة اسلام الدكتور كراين الأمريكي الجنسية وقصصا أخرى ·

٣ ـ **الايمان والزنزانة المتجولة** : قصة كعب بن مالك عندما فرض عليه رسول الله (ص) أن يسجن في جلده ·

٤ ـ **أم لا كالأمهات** : يروي قصة أم استطاعت خلال غيبة زوجها في الجهاد أن تربي أحد أساتذة الامام مالك ·

٥ ـ **صراع بين الفضيلة والرذيلة** : يروي الصراع النفسي العنيف الذي تعرض له بعض المؤمنين عندما جاءتهم الرذيلة تعرض نفسها عليهم ·

٦ ـ **مهد البطولات** : يروي قصتين يفخر بهما التاريخ احداهما دارت حوادثها أثناء صراع أمتنا مع الرومان والثانية جرت في الجولان خلال حرب رمضان ·

★ سلسلة (شعب الايمان) ـ

١ ـ الايمان بالله جل جلاله

٢ ـ الايمان بالرسل : **يصدر قريبا ان شاء الله**

تطلب جميعها من :

دار الرشيد

دمشق ـ ص.ب ٢٤١٣

بيروت ـ ص.ب ١١٣/٦٣٣٤

صدر للمؤلف

الطبعة الجديدة ، مزيدة ومنقحة ، من كتاب :

(النحل تسبح الله)

– الكتاب الذي تناولته بالدراسة المجلات والإذاعات العالمية .

– الكتاب الذي عدته مجلة (Bee World) الانكليزية أحد المراجع العالمية الأكثر علمية وفنية (The more technical)

الكتاب الذي يظهر التوافق الكبير بين العلم والدين ...

– فيه تأخذ بيدك إحدى النحلات ، لتخوض معك غمار خليتها ، فتقوم بدراسة علمية للنحلة : طباعها وتصرفاتها ، ولغة تخاطبها ، وطريقة إنجاز الأعمال في مملكتها ، وأسلوب الحكم لديها ، وكيفية صنعها العسل ، وما أودعه الله في العسل من خواص الشفاء ...

يتخلل ذلك كله ، لفتات نحو اليد الخفية ، التي أتقنت الصنع ، وأبدعت في الترتيب والتنسيق ...

كما يجري بين ثنايا هذا البحث العلمي المستفيض ، مقارنة دقيقة بين آراء العديد من كبار العلماء المجلين في مضمار العلم ، وبين معطيات الدين الحنيف ...

من منشورات دار الرشيد

- القادسية (طبعة ثانية)
- اليرمـوك .
- نهاونـد .
- فتح مصر ومعركة ذات الصواري .
- فتح الاندلس (معركة وادي لكة)

- الاسلام وحركات التحرر العربية

★ مجموعة حكايات حارثة : للاستاذ عبد الودود يوسف

وهي مجموعة قصصية عن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم .

★ حكايات عن القرآن الكريم : للاستاذ عبد الودود يوسف

★ كتاب « المناهج الاصولية في الاجتهاد بالرأي : للدكتور فتحي الدريني

وهو كتاب يجمع بين الدراسة الشرعية والقانونية .